



ف . بارتولد

# تاريخ الحضارة الإسلامية



ترجمة : حمزة طاهر

ف. بارتولد

# تاريخ الحضارة الإسلامية

نقله من التركية إلى اللغة العربية

حمزة طاهر

تقديم الدكتور عبد الوهاب عزام بك

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

## المستشارون

د. أحمد إبراهيم الهوارى

د. شوقى عبد القسوى حبيب

د. قاسم عبده قاسم

المشرف العام :

د. قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذى :

شريف قاسم

مدير الإنتاج :

جمال عابد

تصميم الغلاف : القسم الفنى

## بطاقة الفهرسة

بارتولد ، ف

تاريخ الحضارة الاسلامية / ف. بارتولد ؛ نقله  
من التركية إلى العربية حمزة طاهر ؛ تقديم  
قاسم عبده قاسم ، عبد الوهاب عزام ط ١ .  
الجيزة ؛ عين للدراسات والبحوث الإنسانية  
والاجتماعية، ٢٠١٣ .

١٣٠ صفحة ١٧\*٢٤ سم

تدمك ٤ ٣٠١ ٣٢٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الحضارة الاسلامية

أ- طاهر ، حمزة (مترجم)

ب- قاسم ، قاسم عبده (مقدم)

ج- عزام ، عبد الوهاب (مقدم مشارك)

د- العنوان

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية  
٥ شارع المربوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٣٨٧١٦٩٣

Publisher : EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES  
5 , Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 33871693  
web site : WWW.Dar-Ein.com / Email : dar\_ein@hotmail .com

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

بقلم الدكتور قاسم عبده قاسم

«الحضارة الإسلامية» مصطلح يفضله المستشرقون على مصطلح «الحضارة العربية الإسلامية» ؛ وهذا العنوان الذى اختاره بارتولد لكتابه الموجز حجماً والغنى مضموناً يتماشى مع اتجاه المستشرقين عامة. وعلى الرغم من أن بارتولد من المستشرقين الروس، وربما لهذا السبب ، فإنه أكثر فهماً للحضارة العربية الإسلامية من نظرائه فى الغرب الأوربي؛ ولا سيما فى منطقة جنوب وشرق آسيا حيث انتشر الإسلام ليتخذ طابعاً خاصاً متميزاً فى شكله الحضارى عن الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى المناطق الأخرى بالعالم. وقد تناول المؤلف جوانب عدة من تجليات الحضارة الإسلامية الفكرية ، والسياسية ، والمادية.

ويمتاز هذا الكتاب باهتمامه بالإسهامات الفارسية والتركية والمغولية فى بناء الحضارة الإسلامية ؛ فقد تحدث عن انتشار الإسلام فى الهضبة الإيرانية والدول التى حكمتها سلالات من أصول تركية ؛ كما تحدث الكتاب عن العلماء والمفكرين الذين قادوا النهضة فى هذه الأرجاء ، وفى عمار ذلك تحدث عن المجتمع والاقتصاد والفن... وما إلى ذلك. وتناول بارتولد التأثيرات المغولية فى الحضارة الإسلامية فى تلك النواحي من العالم الإسلامى .

وهذه الطبعة الجديدة للترجمة العربية لكتاب بارتولد ، تحمل ملحقاتاً مصوراً للآثار الباقية من الدول التى قامت فى هذه المنطقة من العالم الإسلامى مثل : السامانيين

والغزنويين والبويهيين والسلاجقة ؛ فرما تكون هناك فائدة إضافية للقارئ الذي يريد أن يصل بين الدراسة المهمة التي وضعها مؤلف الكتاب في فصوله الستة ، وبين ملحق الصور الذي يبين أهم منجزات الحضارة الإسلامية وأعلامها التي تحدث عنها الكتاب .

ولست أزعـم أننى يمكن أن أضيف جديدا للمقدمات الثلاث للأساتذة الأفاضل الذين قاموا على نشر هذا الكتاب البديع .

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

## مقدمة

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

(١)

كتاب فى تاريخ الحضارة الإسلامية كتبه فى اللغة الروسية المستشرق بارتولد وتُرجم إلى التركية مرات. ونشر الترجمة التركية الغربية الأستاذ العلامة محمد فؤاد كوبرلى وكتب له حواشى قصيرة كما ألحق به أبحاثاً مطولة ترمى فى جملتها إلى تبين نصيب الترك فى الحضارة الإسلامية .

وقد استشارنى صديقى وزمىلى الأستاذ حمزة طاهر مدرس اللغة التركية بكلية الآداب فى نقل الكتاب إلى العربية فاستحسنته وفرحت به فسارع إلى ترجمة الكتاب؛ وبعض الحواشى المختصرة التى علقها عليه الأستاذ محمد فؤاد وترك الأبحاث المطولة الملحقة بالكتاب وقد زيدت حواش قليلة فى الكتاب؛ فكل حاشية ليست متبعة باسم محمد فؤاد فهى بينى وبين الأستاذ حمزة . وقد أثبت المترجم التاريخ الهجرى ووضع بين أقواس التاريخ الميلادى، وقد اقتصر عليه المؤلف .

وليس هذا أول فضل لهذا الأخ الفاضل فى النقل من التركية إلى العربية. فقد نقلنا معاً منذ عشرين سنة كتاب اتحاد المسلمين الذى ألفه جلال نورى، وترجم هو منذ سنين رواية طارق بن زياد التى كتبها شاعر الترك الأكبر عبد الحق حامد- وقد تأخر نشرها - وهو يترجم كتاب «بايرنامه» الذى كتبه ظهير الدين محمد باهر مؤسس الدولة التيمورية فى الهند، وهو سيرة ممتعة عجيبه كتبها لنفسه ملك يُعد من عجائب التاريخ طموحاً وإقداماً وصبراً .

ولعل الجامعة تيسر نشر هذا الكتاب عما قليل<sup>(١)</sup>.

---

(١) بعد كتابة هذه المقدمة للطبعة الأولى من هذا الكتاب زاد الأستاذ حمزة ترجمة ما يتعلق بمصر من رحلة أوليا چلى وهو كتاب ممتع يصف مصر وصفاً مفصلاً دقيقاً، وستنشره وزارة المعارف، وترجمة «الدين والعلم» الذى ألفه القائد التركى الكبير المشير أحمد عزت باشا.

## (٢)

قسم بارتولد كتابه إلى مقدمة وستة فصول: : الشرق المسيحي ومكانته في تاريخ الإسلام- والمخلاقه ومبدأ الحضارة العربية- وبغداد وازدهار الحضارة العربية- والحضارة الإيرانية- وفتوح المغول وتأثيرها في الحضارة الإيرانية- والعالم الإسلامي بعد القرن الخامس عشر.

ولم يرتب بحثه على العصور بل على الأمم. ولكن خطة البحث انتهت به إلى الترتيب الزمني؛ فقد رفع العرب لواء الحضارة وهدوا الطريق وتبعهم الفرس ، واقتفى آثارهم الترك. فكان الكلام على نصيب هذه الأمم في الحضارة الإسلامية مسائراً للترتيب التاريخي.

وقد تضمن الكتاب أبحاثاً قيمة وآراء سديدة ، وتناول الجوانب الخفية ذات الخطر في تاريخ الحضارة، مثل الاقتصاد ، ونظام المدن وسعتها ، والسكة ، والخراج، ورواتب عمال الدولة . ولا بد لمثل هذه الأبحاث من كد ودأب.

وليس تاريخ الحضارة بالأمر الأمم، فإن الناس يرون الحوادث السياسية والخطوب المحسنة ويسجلونها، ولكنهم يغفلون عما وراءها من أسباب خفية، ولا يكادون يشعرون بالقوانين الاجتماعية والاقتصادية التي تنطوي عليها الحادثات الظاهرة. فلا بد لمؤرخ الحضارة أن يجاوز الظواهر إلى البواطن، ويكشف الجزئيات عن الكلّيات ، وينفذ إلى الحقائق التي تُسِيرُ التاريخ. وإن الإنسان ليعجز عن إدراك كثير من هذه الحقائق وهي أمامه، فكيف بمن يلتمسها في غيابات التاريخ.

والمؤلف غير متحيز فيما يكتب، منصف حين يتكلم على الشرق والغرب، والمسلمين والمسيحيين، لا يتردد في الاعتراف للشرق بمزاياه ، وللمسلمين بالبر والإحسان ، وبما أجدوا على حضارة العالم كله في العلوم والآداب والشرائع. وفي الكتاب آراء جديدة جداً بالاهتمام. منها كلام في الفصل الأخير عن أسباب تقدم أوروبا وعن حال المسلمين في

العصور الأخيرة، وعن انتفاع أوروبا بأشياء اخترعها الشرق ولم ينتفع بها كما انتفعت ،  
وعن أثر التجارة وطرقها في سبق الأوربيين.

ويتضمن الكتاب كذلك فوائد لا تنهياً إلا لمن أعانه سعة علم وبحث، اقرأ قوله في  
صفحة ٤٧ :

«وقد مُهد لحركة القرن السابع (الفتوح الإسلامية) بحركات العرب الصغيرة التي  
امتدت من قبل خارج شبه الجزيرة ولكن لم تبلغ درجة الفتوح. وكانت البلاد الواقعة شرقيّ  
الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى «بلاد العرب» منذ عهد قرطاجنة حوالي ٤٠١ قبل  
الميلاد، كما أن المدن القبطية في مصر العليا نصف عربية منذ زمن استرابون».

وقوله أنه كان في الجيش البوزنطي في القرن الثاني الهجري مدّرب عربيّ ، وأنه تركهم  
إلى البلغار فانتصروا على البوزنطيين، ص ٦٣ .

وقد أجمل المؤلف البحث . ولو فصله في هذه الموضوعات الواسعة لكتب أضعاف ما  
كتب . فكتابه يشبه «متنا» في تاريخ الحضارة الإسلامية يحتاج إلى شروح مطولة .  
ويظهر الاقتضاب في بعض فصوله حتى يشعر القارئ أنه انتقل من موضوع لم يستوفه  
إلى آخر لم يمهد له. والقارئ الذي لم يطلع على تاريخ الفرس والترك وآدابهما يمر بأسماء  
لكبار العلماء والأدباء ، وخطوب جسيمة تحتاج إلى بيان. وقد بينها بعضها ، وخفنا أن  
يؤدي الاستيعاب إلى إطالة الحواشي.

ويؤخذ على المؤلف أنه لم يُحکم ترتيب الأبحاث وتقسيم الفصول، فيشعر القارئ  
أحياناً أنه يقرأ سجلاً فيه حقائق قيمة وآراء سديدة جمعت للاستفادة منها على غير ترتيب  
واتصال.

وفي الكتاب مأخذ قليلة في أمور يختلف فيها النظر. ومن هذا أن المؤلف تابع ابن  
خلدون في كلامه على العرب والعجم ونصيبهما في العلوم الإسلامية وأثر العرب في  
خراب المدن؛ فقال في صفحة ٥٤ وهو يتكلم عن البصرة والكوفة: «ففيهما وضعت علوم



العقائد والفقهاء من قبل الأعجام». ونقل عن ابن خلدون (ص ٦٧) أن العرب بدو هادمون للحضارة وهو قول لا يصدقه التاريخ، فائمة علوم الدين واللغة في ذلك العصر أكثرهم عرب. ولست أقول هذا عصبية للعرب ولكن إحقاقاً للحق. فقد ظلم العرب منذ شاع رأى ابن خلدون العربى الكندى فى أن حملة العلوم فى الإسلام أكثرهم العجم . وهو كلام يعوزه شئ من التبيين . وليس هذا موضع المجادلة فى رأى ابن خلدون ولكنى أعارض رأيه بهذه الكلمات:

١- وضع ابن خلدون العرب فى مقابل غير العرب ، فجعل أمة واحدة فى إزاء أمم كثيرة، فظهر لغير المثبت أن نصيب العرب فى العلوم الإسلامية قليل.

٢- ولم يسر ابن خلدون فى كلامه على خطة واحدة. فقد نظر إلى البيئة حين أراد أن يجعل العرب فُرسًا فقال عن علماء العرب الذين عاشوا فى إيران أنهم عجم بمنشئهم وشيوخهم ، ونظر إلى الجنس حين أراد أن يجعل العجم الذين عاشوا فى بلاد العرب عجمًا . ولو نظر إلى البيئة وحدها لعدّ من العرب كل العلماء الذين نشأتهم الكوفة والبصرة وبغداد والبلاد العربية كلها، وعد سيبويه البصرى تلميذ الخليل للعرب. ولو نظر إلى النسب وحده لعدّ للعرب كثيرًا من أبنائهم الذين نشأتهم البلاد العجمية مثل الفخر الرازى ومحمد عوفى وجلال الدين الرومى إلخ.

٣- ولست أدري كيف غفل هذا الفيلسوف الكبير عن حقائق التاريخ الباهرة ، فقد استولى العرب على الشام والعراق ومصر وإيران فلم تخرب ، وقد سارعوا إلى إنشاء المدن منذ القرن الأول وبقي كثير من هذه المدن على مر الزمان ، وكان لهم فى الزراعة والتجارة والعمران نصيب لا ينكره إلا من صرف الله بصره وقلبه عن الحق.

٤- علي أنه قد ثبت أن ابن خلدون يقصد بالعرب فى كثير من كلامه الأعراب كما يقال اليوم للبداءة فى كثير من البلاد العربية.

وبعد فللأستاذ المستشرق بارتولد الفضل بما كتب في هذا الموضوع العريض، وبما بذل من عقله وجهده في درس التاريخ الإسلامى عامة. وللأستاذ محمد فؤاد كوبريلى الشناء والشكر على ما سعى فى إخراج هذا الكتاب وبما علق عليه تعليقات تدل على سعة علمه ، وللأخ حمزة الفضل والشكر على أن وفق إلى نقل هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية فممكن قراءة العربية عامة وتلاميذه فى الجامعة خاصة من الإطلاع على هذه الفصول المفيدة.

عبد الوهاب عزام

رئيس معهد اللغات الشرقية



## ترجمة حياة المستشرق بارتولد

### لمترجم الكتب إلى العربية

بارتولد هو أحد كبار العلماء الذين أنجبتهم روسيا القيصرية، وقد وقف معظم حياته على خدمة التاريخ ولا سيما تاريخ الأمتين التركية والإيرانية، إذ تخصص في دراسة مواطن هاتين الأمتين، وحاول تنوير المواضع المظلمة في تاريخهما بأبحاثه الوافية. وقد حكى أحد تلاميذ بارتولد حادثاً حدث له وهو طالب كان له أكبر تأثير في حياته المستقبلية. قال: «كان بارتولد يعرج قليلاً ويأحدي عينيه حول. وقد أحب فتاة رائعة الجمال وأقام على هذا الحب آماله. ولكن ظهر شاب جميل أعجب الفتاة بجماله فانتزعها منه. فتأثر بارتولد وحلف ليختصن بشيء لا يستطيع أحد أن ينتزعه منه، وأخذ في الاستشراق حتى صار حجة فيما اختص فيه».

ونورد هنا نبذة من ترجمة حياته مستخرجة من مقدمات بعض مؤلفاته ومن مقدمة الترجمة الهندية لهذا الكتاب ومن بعض المجلات.

ولد فاسيلي (وسمّاه بعضهم بولهلم) فلاديمير في بترسبرج سنة ١٨٦٩ من أسرة ألمانية قديمة استوطنت روسيا وتخرج في كلية اللغات الشرقية بجامعة بترسبرج سنة ١٨٩١. وفي عامي ١٨٩١ و ١٨٩٢ حضر محاضرات أوجست مولر في جامعة هال ونُلكه في جامعة ستراسبج بألمانيا، ثم رجع إلى روسيا وقام برحلة علمية إلى تركستان استغرقت سنتي ١٨٩٣ و ١٨٩٤. ونشر تقريره عن هذه الرحلة في بترسبرج سنة ١٨٩٥ باللغة الروسية. وفي سنة ١٨٩٦ ألقى محاضرات في تاريخ الشرق بجامعة بترسبرج وقد رشح للأستاذية فيها. ونال شهادة الدكتوراه من جامعة بترسبرج سنة ١٩٠٠ برسالة قُدِّمها لهذا الغرض عنوانها «التركستان أثناء استيلاء المغول»، وترجم كتابه هذا إلى الإنجليزية

بعد أن أعاد النظر فيه ونقحه ، ونشر في مجموعة جب التذكارية سنة ١٩٢٨ طبعته الثانية. ثم عين أستاذاً في جامعة بطرسبرج ، وعضواً في معهد العلوم الروسى. وقد ذاعت شهرته ، ودعى لإلقاء محاضرات في موسكو وطشقند وباكو وغيرها من المدن.

ونشر في طشقند سنة ١٩٠٢ بحثاً عن بحيرة آرال ومصب نهر جيحون (أمودريا) . وترجم كتابه هذا إلى الألمانية باسم : Nachrichten über den Aral-See und den unteren Lauf des. Amu-Darja . وظهر في سنة ١٩٠٣ كتابه المسمى « نظرة تاريخية وجغرافية إلى إيران » (باللغة الروسية). وألف في سنة ١٩١١ تاريخ الدراسات الشرقية في أوربا وروسيا . نشد قسم من هذا الكتاب مترجماً إلى اللغة التركية في مجلة «ملى تتبعلر مجموععه سى» ونشر في سنة ١٩١٤ كتابه المسمى تاريخ الرى في تركستان (باللغة الروسية) . وكتب سنة ١٩١٨ في حياة ألوغ بك وزمنه وألقى محاضرة في تاريخ التركمان (باللغة الروسية).

وظهر في سنة ١٩١٨ كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية باللغة الروسية، وهو هذا الكتاب الذى ترجمناه.

وظهر له في سنة ١٩٢٢ كتاب العالم الإسلامى باللغة الروسية . وفى عام ١٩٢٥ نشر في مدينة باكو رسالة عن موقع الأراضى الواقعة حول بحر الخزر في تاريخ الإسلام. ثم نشر في عام ١٩٢٦ كتاباً باسم «قوقاز وتركستان وثورجا» وموضوعه العلاقات السياسية والدينية بين أمراء روسيا الإسلامية.

وفى عام ١٩٢٦ دعاه معهد التركيات لإلقاء محاضرات في جامعة استانبول عن تاريخ الترك ومدنيتهم في آسيا الوسطى، فألقى اثنتى عشرة محاضرة قيّمة طبعت في استانبول ، وقد استفدنا معظم هذه المقدمة من مقدمة هذه المحاضرات. وله رسائل أخرى، أمثال «النصارى في آسيا الوسطى» نشرت في القسم الشرقى لمجلة جمعية الآثار الروسية في المجلد VII ؛ ثم ترجمت إلى اللغة الألمانية باسم Zur Geschichte des Christentums in Mittelasiien ثم ترجمت إلى التركية . ورسالة «لوحة بالفارسية

على جدار مسجد منوچهر» بالروسية، ورسالة «الإسلام» بالروسية . وآخر ما ظهر له كتابه «تاريخ الحياة الثقافية في تركستان» وكتابه «محاضرة تاريخية عن قير غيز» وقد ظهرها في سنة ١٩٢٧.

وظل بارتولد يؤلف ويكتب في كثير من المجلات العلمية في روسيا وألمانيا مقالات تاريخية قيمة وفي دائرة المعارف الإسلامية حتى توفى في أغسطس سنة ١٩٢٧.

وأما كتاب تاريخ الحضارة لإسلامية هذا ، فقد ترجمه جمال الدين وليدى أحد كتاب أترك الشمال إلى اللهجة التركية القازانية سنة ١٩٢٢ ، وترجمه غازى يوسف وهو كاتب تركى أزكى إلى اللهجة التركية الأزكية سنة ١٩٢٧ . ثم ترجمه إلى اللهجة الغربية (العثمانية) أحد أورال تلميذ الأستاذ محمد فؤاد كوبرىلى ، أستاذ الأدب التركى بجامعة استانبول سابقًا ، وأستاذ تاريخ القرون الوسطى فى السنين الأخيرة. وكتب له الأستاذ كوبرىلى تصحيحات وإيضاحات قيمة، ونشره فى سنة ١٩٤٠.

ولما قرأت الكتاب فى هذه الترجمة ، عقب صدوره ، وجدته كتابًا قيمًا ، إذ ذكر المؤلف فى مجلد صغير زبدة ما يمكن أن يقال عن الحضارة الإسلامية ، محلقة من علو شاهر ، وقد أبدى كثيرًا من سعة الصدر إلى جانب سعة العلم؛ فعرضته على صديقى العزيز وزميلي الدكتور عبد الوهاب عزام بك أستاذ الأدب العربى بجامعة فؤاد الأول ورئيس معهد اللغات الشرقية ، فاستصوب نقله إلى اللغة العربية، وشجعنى قائلاً : «إنه جدير بالترجمة إلى العربية لاحتوائه على آراء عالم مستشرق بعيد عن العالم الإسلامى» كما تفضل بعد إكمال طبعه بكتابة مقدمة له.

ونقلته إلى العربية ، لغة الثقافة المشتركة لجميع المسلمين، نقلاً يكاد يكون حرفيًا ، مع مقدمة الأستاذ محمد فؤاد كوبرىلى ، وبعض تعليقاته المفيدة، وزدت تعليقات رأيتها مفيدة للقارئ، وكتب الدكتور عزام بك تعليقات أخرى. وحسبى من عملى هذا أن أنقل آراء هذا العالم الجليل إلى قراء العربية، أمينًا متثبتًا.



## مقدمة

### الأستاذ العلامة محمد فؤاد كوپريلی

( ١ )

إن عهداً طويلاً من تاريخ الترك يقارب ألف عام، منذ دخول الترك في الإسلام إلى «التنظيمات»<sup>(١)</sup> داخل في إطار عام يسمى تاريخ الإسلام. وقد دخل الأتراك في جامعة الأمم الإسلامية وعملوا مع العرب والإيرانيين وعناصر إسلامية أخرى على ازدهار الحضارة العظمى التي تسمى الحضارة الإسلامية أكثر من ألف عام، وأسسوا في ساحات الإسلام المختلفة دولاً قائمة على الأرستقراطية العسكرية، وجعلوا في أيديهم قيادة العالم الإسلامي منذ ظهور الدولة السلجوقية الكبرى حتى العصر الأخير. فمن الطبيعي ألا يفهم تاريخ الإسلام دون معرفة تاريخ الترك الذين أثروا تأثيراً كبيراً مستمراً في شؤون العالم كله وفي العالم الإسلامي خاصة، كما أنه من الطبيعي أيضاً ألا يمكن فهم تاريخ الترك في القرون الوسطى بدون إدخاله في إطار تاريخ العالم الإسلامي.

وقد أصبح معروفاً اليوم أنه لا يمكن البحث في تاريخ التواريخ القومية دون أن يوضع في مكانه الطبيعي من التاريخ العام. فإذا تركنا جانباً ما أحرزه التاريخ ولا يزال بحرزه من الخطورة في التربية القومية، فإنما يقاس قيمة كل تاريخ قومي وخطورته بعظمة تأثيره المادى والأدبى ودوام هذا التأثير في إطار التاريخ العام. وإذا لم نبلغ هذا الحد من فهمنا للتاريخ العام التركيبى (Synthétique) فإن درس تاريخ كل أمة ضمن دائرة ثقافتها

---

(١) عهد التنظيمات في تاريخ الدولة العثمانية يبدو بتلاوة رشيد باشا وزير الخارجية أمر (فرمان) السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود الثانى فى حديقة «كلخانة» سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) فى حضور سفراء الدول وقناصلها وأعيان الدولة العثمانية وعلمائها. ويتضمن ذلك «الفرمان» ما يعترزم السلطان اجراءه من الإصلاحات فى إدارة الدولة، والمساواة بين رعايا الدولة دون نظر إلى الفروق الدينية.



أو ثقافاتهما التي تتصل بها ضرورة لا شك فيها؛ فليس ضرورة علمية فحسب، بل من الضرورات القومية أيضاً أن يبحث الأتراك-الذين أمضوا ألف عام من تاريخهم في دائرة ثقافة تاريخ الإسلام في الشرق الأدنى، والذين كان لهم شأن عظيم فيها- في هذه الثقافة بحثاً جديراً بها. وتبدو هذه الضرورة في درس تاريخ الفكر والفن، وتاريخ الشريعة وتاريخ الدين أو بكلمة واحدة، تبدو في جميع شعب التاريخ الاجتماعي. وكما أنه لا بد من معرفة تاريخ التشريع الإسلامي معرفة نظرية وعلمية لدرس تاريخ شرائع الأتراك المسلمين، فإنه من الضروري كذلك فهم تاريخ النظم المشابهة لها عند العرب والإيرانيين؛ وبهذه الصورة يتضح أنه لا يمكن فهم المسائل التشريعية الخاصة بأمة منها فهماً حقيقياً بدون فهم تاريخ كامل التشريع بدراسة مقارنة لشرائع تلك الأمم الثلاثة الداخلة ضمن دائرة ثقافة واحدة. ومع أن لكل أمة من الأمم الداخلة ضمن الثقافة الإسلامية ماضيها وتقاليدها الخاصة بها قبل الإسلام، وعبقريات نشأت من البيئات الجغرافية والحضارات المحلية، فإن لها ميزات عامة نشأت من اجتماعها في دائرة ثقافة واحدة و «تاريخ مشترك».

يتضح من الأسباب المذكورة أن تعلم تاريخ الإسلام والثقافة الإسلامية، ولو في صورة مجملية، ضرورة قصوى لمشقفي الترك الذين يشعرون بحاجة إلى الحصول على ثقافة في تاريخهم القومي.

وينبغي ألا يُستغرب إذا قلنا إن أحدث الكتب المؤلفة في هذا الموضوع المنشورة في بلادنا وأعظمها لا تسد هذه الحاجة. فكتاب «التمدن الإسلامي» لجرجي زيدان، المرتب على خمسة أجزاء. والمترجم إلى التركية ترجمة حسنة؛ وتاريخ الإسلام للسيد أمير على الهندي المرتب على جزئين، يمكن أن يزوداً قراءهما بمعلومات كثيرة مشتتة غير منسجمة؛ ولكن لا يمكن أن نعرف من هذين التاريخين مكانة الحضارة الإسلامية الحقيقية في تاريخ العالم، المنبثقة في مئات الصفحات لأنهما ينقلبان أحياناً إلى تاريخ قصصي وأحياناً إلى مدائح (Apologie). إن أمثال هذه الكتب المؤلفة بالعقلية الشرقية متعبة جداً وقليلة الجدوى لعقلية قد أعدت كما يقتضى تثقيف القرن العشرين، وتشعر بحاجة إلى فهم الماضي موافقاً لنظرات هذا اليوم ولكي نرى صفحات تطور تاريخي قد امتد قروناً كثيرة

بخطوطها العامة البارزة يجب النظر من عل بدون استغراق فى الفروع غير اللازمة ، ولا إخلال بوضوح اللوحة العامة وصحتها . ولأجل الوصول إلى هذه الغاية يجب على المؤرخ ، مع اطلاعه على جميع تلك الفروع ، أن يكون عالماً بتمييز الأحداث الفرعية عن الأحداث الأصلية، أو بعبارة أصح يجب أن يكون مطلعاً على المعلومات المختلفة المؤدية إلى إدراك حدود الحقائق الاجتماعية المرتبطة بعضها ببعض. فإن نظر المؤرخ وفهمه عاملان من الدرجة الأولى، سواء فى الاعداد التحليلية لتمييز الأحداث بعضها من بعض ، أو فى وضع إنشاء تاريخى بإيضاح تلك الأحداث وتركيبها. ومن أجل ذلك يضطر مؤرخ كل عهد أن يعنى بالمسائل التى شغلت الأذهان فى ذلك العهد قبل غيرها، وتسجيل مظاهرها وإيضاحها. مفكرو اليوم مثلاً يُعنون بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية قبل غيرها، فى معنى مؤرخو اليوم كذلك بالبحث فى أصل هذه المسائل ومظاهرها فى الماضى لأن العقلية المعدة لحاجات اليوم إذا أرادت أن تعرف عهداً من العهود الماضية بحثت فى كتب التاريخ التى ترجع إليها، فى مظاهر تلك المسائل فى الماضى. وينبغى أن نعذر فى هذا قارئاً غير متخصص لا يعنيه غير إتمام ثقافته العامة. ولكن لا شك أن هناك فرقاً بين الكتب المؤلفة لإقناع المتخصصين المتبحرين والعلماء فى ساحة من ساحات العلم، وبين الكتب المؤلفة لسد حاجة الطبقة المثقفة العامة.

فالكتب المؤلفة فى تاريخ الإسلام وحضارته التى ذكرناها آنفاً، أو الكتب الشرقية، بل بعض الكتب الغربية الشبيهة بها أيضاً، ليست كافية لسد حاجة مثقفى الترك اليوم . فمؤلفوها ، كجرجى زيدان مثلاً، علماء ذوو معلومات واسعة؛ ويمكن أن يجد المشتغلون بتاريخ الإسلام، بل المتخصصون أيضاً، معلومات كثيرة فى كتابه الكبير. ولكن لا يمكن انتظار تاريخ «تركيبى» يطمئن إليه قراء أمس، بله اليوم، من رجل قد حُرم من الإعداد الفنى الضرورى «للأعمال الأولية التحليلية للتاريخ» . والحق إننا مضطرون إلى الاعتراف بأننا بالرغم من ادعائنا الدخول فى دائرة الحضارة الأوربية منذ عهد «التنظيمات»، لم ينشأ عندنا، ولا فى البلاد الإسلامية الأخرى، مؤرخ حقيقى بالمعنى المفهوم اليوم إلى زمن قريب. وليس كافياً لسد هذه الحاجة أن نبغ فى الشرق خلال القرن الأخير، رجال لهم معرفة تاريخية واسعة ، ومعرفة فنية، ومحيطين بأمور كثيرة. على أننا لا ننكر أنه من النادر

أن نجد بين مستشرقى الغرب المتخصصين فى فقه اللغات الإسلامية، مؤرخين بالمعنى المعروف اليوم. ولذا فإن الدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام اليوم، وتاريخ الترك فى القرون الوسطى، ولا سيما دراسات التاريخ الاجتماعى، لا تزال متأخرة. فما أسرع ما يظهر فتور الأبحاث المكتوبة عن تاريخ الإسلام وتاريخ الترك فى القرون الوسطى، وخاصة فى المسائل الاجتماعية، فى كتب التاريخ العام التى ظهرت بكثرة فى أوروبا بعد الحرب العالمية، عند مقارنتها بالأبحاث الأخرى. لندع المؤلفين الذين عجزوا عن القيام بالعمل كما يجب ؛ ولكن هذا النقص فى مؤلفات العلماء الأجلاء أمثال G. Marçais و G. Demombynes لا شك ناشئ من عدم تدليل هذه المواضيع إلى اليوم.

## ( ٢ )

كنت منذ نحو اثني عشر عاماً أدرس تاريخ الأدب التركي في جامعة استانبول، وأحسست إذ ذاك بشدة حاجة تلاميذي إلى كتاب صغير تركيبى محتو على معلومات صحيحة عن تطور الحضارة الإسلامية العام، يوسع نظرهم إلى التاريخ ويجمع المعلومات المشتتة في هذا الموضوع في دوائر معينة. ولا تفيد أمثال هذه الكتب إلا إذا ألفها علماء من عظماء المتخصصين. وأما كتب المؤلفين الناشئين المحدثين غير المستندة على علم واسع وتجارب سنين طويلة فيمكن أن تدفع القراء إلى حكم مستعجل خاطئ، وتنتج أخطاراً عظيمة بتحريف الحقيقة التاريخية. وفي ذلك الوقت أنجذنى كتاب صديقى المرحوم الأستاذ بارتولد الذى لم يكن عالماً بفقهِ اللغات فحسب بل مؤرخاً جليلاً أيضاً.

ظهر هذا الكتاب في سنة ١٩١٨ باللغة الروسية ، وترجمه جمال وليدى إلى اللهجة التركية التتبية في قازان سنة ١٩٢٢ . وفي سنة ١٩٢٧ ترجمه غازى يونس إلى اللهجة الأزبكية ولما عُهد إلى فى السنين الأخيرة تدريس تاريخ القرون الوسطى فى كلية أنقره، أحسست بالحاجة إليه لطلبة التاريخ. وكلفت تلميذى « أحداورال » بترجمته إلى التركية. ولكن لم يكن جائزاً قصر الانتفاع بهذا الكتاب الجليل الذى يسد مثل تلك الحاجة الكبيرة على بيئة ضيقة ، فإن فى إمكان كل تركى متعلم، مهما كان نوع ثقافته ، الانتفاع به فى استكمال معلوماته البشرية والقومية ، بدون حصره فى بيئة طلبة الجامعة والمدارس العليا.

ولذا أحدثت هذه الترجمة مقابلة بالترجمتين التتبية والأزبكية مقابلة دقيقة، وأصلحت بعض أغلاط خطيرة وقعت فيهما؛ ثم قارنتها بالترجمة الإنجليزية (Mussulman Cul-ture, University of Calcutta 1934) لشاهد السهروردى الذى لم يزد غير بعض حواش غير مهمة فى بضع صفحات ، وترجمة المؤلف وذكر مؤلفاته. ثم أردت ألا اقتصر

على هذا القدر لأسباب مختلفة: منها أن الكتاب ألف سنة ١٩١٨ فلم يُستفد فيه من كتب كثيرة في تاريخ الإسلام وثقافته ، وظهرت بعد التاريخ المذكور. ومنها أن المؤلف العظيم المتخصص في تاريخ إيران وآسيا الصغرى وقع في أخطاء في المسائل الخارجية عن دائرة اختصاصه فكرر كثيراً من الأخطاء والأحكام العاجلة التي عرفت منذ القدم. ولتصحيح تلك المسائل وتكميلها اضطررت إلى إضافة قسم آخر للكتاب بعنوان «الإيضاحات والتصحيحات» واضعاً نصب عيني في عملي هذا حاجة طلبة التاريخ في معاهدنا العلمية العليا، فبينت في كل مسألة خطيرة أين يمكن الحصول على معلومات فيها، أو بعبارة أصح أين توجد المراجع مجتمعة ، وذكرت ماهية تلك المراجع وقيمتها بعبارات مختصرة كما ذكرت ما في المراجع من نقص يجب إتمامه. فستكون الإيضاحات والتصحيحات توجيهاً لمن يريد التعمق في مسائل الحضارة الإسلامية . ولقد حاولت إظهار بعض مسائل عويصة لم تُذلل بعد ، كما أشرت إلى نقط كثيرة من دراستي القديمة يجب تصحيحها . وبفضل هذه الزيادات التي هي نتيجة مجهودات طويلة متعبة لا يدركها إلا من قام بمثلها ، جاوز الكتاب أن يكون كتاباً يزود المثقفين والمفكرين بمعلومات عن الحضارة الإسلامية ، فصار كتاباً موجهاً لمن يريد البحث في شعب تاريخ الترك وحضارتهم المختلفة. وإنى أظن أن كلا القسمين ، القسم الأول الترهيبى الذى ألفه المؤرخ الجليل بارتولد والقسم الثانى النقدى والمرجعى (bibliographique) الموجّه الذى كتبتّه، يفيد كثيراً نشأتنا الحديثة التى تتلقى علم التاريخ فى كلية آدابنا . وبدل على ما يسد هذا المجلد الصغير من نقص كبير أنه لم يوجد حتى اليوم كتاب من هذا الطراز في الحضارة الإسلامية حتى فى اللغات الغربية.

## ( ٣ )

بعد أن بينت كيف تكون هذا المجلد الصغير أريد أن أذكر سبب اختياري له « كتاباً تركيبياً مشتملاً على أحسن المعلومات وأكثرها نظاماً » يرجع إليه المثقفون من جميع الطبقات للاطلاع على تطور تاريخ الحضارة الإسلامية العام، حتى يمكن إدراك ماهية كتاب بارتولد وتبيين جهاته القوية والضعيفة من جهة ، ويمكن تزويد القراء بفكر عام عن كتب شبيهة بها بمقارنتها بكتاب بارتولد من جهة أخرى.

من التقاليد المعروفة لدى مستشرقى أوروبا، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، « جمع نتائج الأبحاث التى وقعت إلى زمانهم وتلخيصها » فى كتاب تركيبى عن دين الإسلام والعالم الإسلامى . فالاشتغال بفقہ اللغات السامية وتاريخ الإسلام الناشئ من أبحاث التبشير ونشاط المبشرين من جهة، ومن الحاجات السياسية والإدارية للدول الكبرى والصغرى التى لها مستعمرات، والضرورة الملحة إلى أن تعرف الدول ذوات المصالح الكبيرة الشعوب التى تستعمرها ، والممالك الإسلامية التى لها صلات بها؛ كل هذا كان منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩١٤، سبباً لنهضة الدراسة الإسلامية فى أوروبا . قد زاد فى خطورة هذه الأبحاث ، وتعلق الطبقة المثقفة بها فى كل البلاد ، رقى العلوم الاجتماعية وفهم التاريخ العام، اجتماع الضرورات العلمية لمعرفة المراحل العظيمة التى « تربط القديم بتاريخ القرون الوسطى » بهذه الضرورات العملية. فالكتب المرتبة، والتركيبية التى يشعر العلماء المتخصصون فى الأبحاث الإسلامية بالحاجة إلى كتابتها حيناً بعد حين، ناتجة عما سبق . وأما الحركات السياسية والفكرية، وتيارات الحركات القومية والتجديد التى ظهرت بعد انتهاء الحرب العالمية، فقد جعلت شعور العالم الغربى - لغايات سياسية وعملية - أكثر علاقة بالعالم الإسلامى. وكانت الضرورات العلمية تزيد الحاجة إلى درس تاريخ الأمم الإسلامية وحضارتها والتعمق فى فهمها يوماً بعد يوم. فقد أريد ألا يُقصر التاريخ العام على الغرب المسيحي كما كان من قبل ، بل يُجعل تاريخاً

بشريًا تركيبياً محتويًا على الشرق الإسلامى والشرق الأقصى الخارج عن حدود الأديان السامية. ونشاهد هذا الميل قليلاً أو كثيراً فى سلسلة كتب التاريخ العام التى نشرت فى أوربا؛ ومع أن هذا الميل لا يزال فى المقدمة ولا يفترق عن «الروتين» القديم، فإنه يبشّر بانتصار فهم التاريخ العام بمعناه الحقيقى فى المستقبل . فكتاب بارتولد هو من تلك الكتب التركيبية التى ظهرت فى أوروبا بعد الحرب العالمية عن العالم الإسلامى، نتيجة لتلك الميول فى عالم الفكر.

إذا قورنت هذه المؤلفات جميعاً بكتاب ف . بارتولد مقارنة سطحية ظهر أنها كتب تُكثر العناية بالبحث فى نشأة الإسلام ، والعقائد الإسلامية الأصلية ، والفلسفة وعلم الكلام، وفى المذاهب الإسلامية المختلفة، وفى المذاهب الفقهية وفى الطرق الصوفية وفى فرق خارجة عن عقائد أهل السنة؛ وفى حركات التجديد الدينية التى ظهرت فى الأزمان الأخيرة أو فى حالة العالم الإسلامى السياسية اليوم؛ ولم تُعن هذه الكتب قط بالتطور التاريخى للأمم الإسلامية. وإذا تركنا جانباً الكتب البسيطة منها ككتاب العالم الإسلامى Le Monde Islamique لمؤلفه مايرهوف Mayerhof الذى نشره فى سنة ١٩٢٦ ؛ فمن الكتب المؤلفة هلى هذه الخطة كتاب النظم الإسلامية Les Institutions Musulmanes العظيم الذى أصدره ديمبين G. Demombynes عام ١٩٢١، وكتاب الإسلام والعقائد والنظم من التحييز رغم سعة علومه. والكتاب الأخير يكتمل بعض نقط كتاب العقائد والشرائع الإسلامية le Dogme et la loi de l'Islam العظيم الذى ألفه جولدزبهر سنة ١٩١٠، ونشر أرين F.Arin ترجمته الفرنسية سنة ١٩٢٠ . ولا استثنى منها إلا كتاب الإسلام L'Islam الجليل الذى أصدره صديقى العزيز هنرى ماسى H. Massé سنة ١٩٣٠ إذ قد حاول المؤلف فى هذا الكتاب إظهار التطور التاريخى للإسلام، فوق الأبحاث الخاصة بالعقائد؛ وخصص مكاناً للإيرانيين والأتراك والدول البربرية فى أفريقية الشمالية ، فلذا يمكن أن يشغل هذا الكتاب المؤرخين أكثر من غيره.

وأما كتاب بارتولد الصغير فلا يشبه من جهة تخطيطه العام كتاباً من تلك الكتب

التي ذكرناها ؛ فليست فيه «الخلاصة المتعلقة بأصل الدين الإسلامى (dogmatique) التي توجد فى جميع الكتب الأخرى كما لا تُشاهد فيه إيضاحات عن ظهور الإسلام وحيارة الرسول وتعاليمه التي لا يخلو منها عادة مثل هذا الكتاب فى القديم والحديث . فقد حاول أن يصوّر الحضارة الإسلامية «داخل حدود التاريخ العام» لا بعواملها الداخلية فحسب ، بل بعواملها الخارجية أيضاً . فالمؤلف الذى أبرز خطورة الشرق المسيحى الإسلامى ، يشرح بعد مدخل عام ، ابتداء هذه الحضارة فى عهد الخلافة وازدهارها فى العهد العباسى ، وموقع الحضارة الإيرانية من الثقافة الإسلامية ، والنتائج العامة للاستيلاء المغولى ؛ ثم يصف العالم الإسلامى بعد القرن الخامس عشر وصفاً عاجلاً فيختم كتابه فجأة بطريقة عاجلة أيضاً .

ومع أن كثيراً من الكتب القديمة والحديثة المؤلفة فى موضوع عام كالحضارة الإسلامية قد اتبع مؤلفوها خطة تكاد تكون واحدة مع فرق ضئيل ، فإن وضع بارتولد نصب عينيه خطة مخالفة لخطتهم ، وعدم نظره إلا إلى التكامل التاريخى ، يجعل لهذا الكتاب ميزة خاصة . ثم إن الكتب الأخرى تبحث فى المؤسسات الاجتماعية المختلفة فى مباحث منفصلة ، فى حين أن بارتولد لا يقسم الحياة الثقافية إلى أقسام مصطنعة ، بل يصورها جميعاً «كلاً» واحداً كالحياة الواقعية ، ويحاول شرحها .

وينبغى ألا ننكر أن هذه الخاصة تجعل الكتاب فى الوهلة الأولى كأنه غير متبع خطة معينة . ولكن يجب أن لا ننسى قط أن المزاج الذى نسميه الحياة الاجتماعية والذى ينشأ من امتزاج عضوى لمؤسسات اجتماعية متنوعة وعناصر خارجية ، مؤلف فى الواقع من عناصر لا يمكن تفريقها ، ويمكن فى الوقت نفسه عمل تركيب تاريخى . وفى وسعنا أن نقول أن بارتولد قد سار فى كتابه هذا متفقاً مع أحدث الاتجاهات التاريخية . وميزة كتابه الثانية عدم إهماله للعوامل الاجتماعية والاقتصادية للحضارة الإسلامية ما أمكن . هل لنظرية «التفسير المادى للتاريخ Matérialisme historique» التى اتخذت شكل مذهب رسمى فى روسيا فى السنين التى ألف فيها الكتاب تأثير فى هذا لا أزعم هذا ، إذ ليس فى إمكان المؤرخ الكبير الذى يُعنى بالأحداث الاجتماعية والاقتصادية فى بحوثه التاريخية



إهمال مثل هذه المسائل حين يشرح تكامل الحضارة الإسلامية، بل أكبر ما يمكن أن يوجه إليه من النقد هو عدم إفساحه مجالاً أوسع للعوامل الاجتماعية والاقتصادية في كتابه هذا.

إن أخطر ما في هذا الكتاب عندنا هو عدم إنكاره شأن الأتراك في سير الحضارة الإسلامية العام إنكاراً باتاً - رغم كل الآراء السلبية التي كانت سائرة في ذلك الوقت في عالم العلم - ومحاولته إبراز ذلك الشأن. على أننا لا ندعى تحرر بارتولد في هذه المسألة من الآراء القديمة الباطلة والأحكام الخاطئة التي كانت تسيطر على جميع مستشرقى ذلك الوقت؛ فإننا كما لمحنا كثيراً في الإيضاحات والتصحيحات نشاهد عنده أيضاً تأثير الآراء السلبية في شأن الأتراك. وليست له إلا معلومات عامة عن الدولة العثمانية وهي أهم عصور تاريخ الترك وأزهاها، لأنها خارجة عن دائرة اختصاصه. وبالرغم من ذلك قد وفق هذا المتخصص العظيم في تاريخ إيران وآسيا الوسطى، بثبوت عالم حقيقى ولقانة (intuition) مؤرخ عظيم متعمق في معنى الأحداث، إلى إدراك شأن الأتراك في مسائل كثيرة.

ومما يميز هذا الكتاب عن أمثاله اعتناء مؤلفه بالإيرانيين والأتراك، بدون عناية مبالغ فيها بالعالم العربى، وبلاد أفريقية الشمالية التي ظلت بعيدة قليلاً أو كثيراً والتي لم يكن لها موقع أساسى خطير في تطور الحضارة الإسلامية العام. وإذا استثنينا كتاب H. Massé فجميع الكتب الأخرى لا تجعل للأتراك مكاناً حتى في صدد بحث التطور التاريخى، ويفرضونهم عنصراً هادماً لا غير. وقد عنى بارتولد في تاريخ الحضارة الإسلامية بالجوانب الخطيرة من حيث النظر في تاريخ الترك وبلادهم وازدهار هذه الحضارة فيها، عنايته بالتاريخ العام، فمن الطبيعى أن يكون كتابه أفيد لمشقى الترك وأكثر تعلقاً بهم. والحق أن مؤلفى الكتب الشبيهة بهذا الكتاب في تاريخ الحضارة الإسلامية لا يمكن مقارنتهم ببارتولد كمؤرخين أيضاً.

## ( ٤ )

أظن أن الأسباب التي حاولنا شرحها بالإيجاز قد أوضحت ترجيحنا لكتاب بارتولد على غيره. فإننا بإشارتنا إلى الجهات القوية والجهات الضعيفة من هذا الكتاب المؤلف بعقلية تاريخية كاملة ونظرة واسعة، قد أرشدنا القراء إلى الصورة الحقيقية للكتاب الذي بأيديهم . ولا ينبغي أن يُظن، بنقدنا المادى المحض، أننا ننزع فيه إلى « فهم تاريخ قومى وجدانى » أنتجته القومية المتعصبة؛ ولو أن البحث فى تاريخ تقدم أى وطنية يدل على أن الأدوار الأولى منه وجدانى محض ، وأن لهذه الحملة النفسية الكبيرة فائدة جلية فى البحث التاريخى. فإذا استقرت الأصول العلمية، والعقلية النقادة، استحال دوام ذلك العهد الحماسى ، فحل محله العلم ومنطقه الهادئ . وإنا لنشاهد إنقضاء العهد الوجدانى أو إشرافه على الانتهاء حتى عند مؤرخى بلاد البلقان ، وهى أخريات البلاد الداخلة فى الحضارة الغربية. وأما جعل التاريخ شاهد زور فى سبيل المنافع السياسية أو للدفاع عن الآراء المغرضة، فإنه عمل مؤلم حقًا وغير مجد للعلم وللكرامة الإنسانية. غير أنه يجب أن نقول مسرورين بأن مثل هذه الأعمال صائرة إلى الزوال، وأن عدد العلماء الباحثين فى التاريخ بحثًا واقعيًا بصفة مادية محضة قد أخذ - رغم كل شئ - فى الازدياد.

وقد رأت القومية التركية، بالطبع ، العهد الوجدانى لفهم التاريخ القومى، ولم يكن بد من أن يكون ردّ فعل مؤرخينا مفرطًا ومبالغًا إزاء مؤرخى أوربا الذين يرون الأتراك بآراء سلبية ظالمة غسر مستندة إلى أى أساس علمى ، وكان الأمر كذلك حقيقة . إن تقدم النقد الذى هو أساس كل الآراء العلمية، واستقرار أصول الدراسات العقلية (rationnel) سيختم عندنا، كما ختم فى كل البلاد، هذا العهد التاريخى الوجدانى «الذى ظل سائدًا منذ أكثر من نصف قرن ، مع بعض فواصل». ولكن هذا الفهم للتاريخ خلق عندنا، كما خلق فى كل مكان آخر، نزعة نفسية إلى البحث فى التاريخ القومى، باعتباره دافعًا إلى البحث فى شأن الأتراك فى التاريخ العام. ويجب أن أعتف أيضًا أن العامل الوحيد الذى

دفعنى قبل ثلاثين عامًا إلى البحث فى التاريخ القومى وإلى عدم مفارقة هذا الطريق بالرغم من موانع كثيرة - توقع الإنسان فى اليأس والكسل - هو هذه الحملة النفسية. على أنى يجب أن أسرع فأقول بأنى منذ اليوم الأول حاولت ألا أفارق الأصول العلمية والمادية فى بحوثى التاريخية، وأن أنقد آراء مؤرخى الغرب الوهمية السلبية فى شأن الأتراك نقدًا ماديًا صرفًا. ولكنى لا أستطيع أن أخفى أنى قد اندفعت فى تأثير الآراء الوجدانية فى بعض كتاباتى القديمة، رغم مالى من عزم أكيد على عدم مفارقة العقلية (rationalisme) ، غير أنى لا بد أن أقول أيضًا وأنا مسرور أنى بفضل النتائج الإيجابية التى حصلت عليها لتغيير آراء كثيرة خاطئة فى شأن الأتراك فى القرون الوسطى ، وقبل كثير من علماء الغرب هذه النتائج.

إنى من المؤمنين بالعلم وبسير الإنسانية نحو الخير والصدق ، وأحمل اليوم فى قلبى وفى رأسى ثورة القومية التركية الإنسانية كما حملتها منذ ثلاثين عامًا. ولكنى إذا شرعت فى البحث عن حقيقة تاريخية تذكرت أنى خادم حقيقة علمية قبل كل شئ . إنى أقول دائمًا، إنه مما لاشك فيه أن علماء العالم سيقبلون نتائج أبحاثنا إذا أبرزنا شأن الأمة التركية فى تاريخ العالم بطريقة مادية باحثين بعقلية اليوم، كما أنه من المؤكد أن تستفيد الأمة التركية فائدة عظيمة.

وإنى أنتهز الفرصة حين أنتهى من هذه الأسطر مقدمًا إلى القراء صديقى المؤرخ الجليل المرحوم بارتولد ، فأنبئ بأنى أقوم بتجربة فى تأليف تاريخ تركيبى للحضارة التركية فى القرون الوسطى لتكميل تاريخ بارتولد من جهة أخرى.

# تاريخ الحضارة الإسلامية

## مدخل

«حضارة الإسلام» أو «حضارة العرب» اسم لحضارة الشرق فى القرون الوسطى . ولم يكن العرب وحدهم مبتكرى هذه الحضارة ولكن جميع سكان الشرق الأدنى وقسم من أفريقية ، الذين ظلوا مدة طويلة منفصلين عن الحضارة الأوربية ، آخى بينهم الإسلام، دين الدولة. واللغة العربية، لغة العلم والأدب.

وليس استعمال كلمة «الشرق» فى تاريخ الحضارة متفقاً مع معناها الجغرافى اتفاقاً تاماً؛ فإن بلدان الشرق الأدنى المتحضرة كان يجب تسميتها فى روسيا بالجنوب. وكذلك إفريقية الشمالية التى تعد جزءاً من الشرق الإسلامى ، جنوية بالنسبة إلى أوربا.

ابتدأ استعمال كلمة الشرق بمعنى البلاد المتحضرة مقابلاً للغرب، فى عصر الإمبراطورية الرومانية. ولم يكن يوجد فى نظر اليونان إلا الجنوب الحار المتحضر والشمال البارد موطن المتوحشين، وكانوا فى تقسيمهم العالم إلى أقسامه المختلفة يسرون على هذا الأساس نفسه، فيجعلون أوربا شمالى آسيا وأفريقية معاً؛ فلو كانت سيبيريا معلومة لهم لعدت قسماً من أوربا. وجميع سكان العالم ، ماعدا اليونان ، ينقسم فى نظر أرسطو إلى البرابرة الشجعان المقيمين شمالى أوربا القاصرين عن التحضر وإدارة الدولة، والآسيويين المتحضرين المحرومين من الشجاعة. وتقع اليونان بينهم. وإقليم بلادهم يلائم تقدم الحضارة والمحافظة على الشجاعة؛ فلذا أرسل هذا الشعب ليحكم العالم. ولقد حقق الإسكندر المقدونى خيال أرسطو هذا بعض التحقيرة؛ فإن فتوح اسكندر الشرقية أخضعت الشرق الأدنى ومصر لليونان من جهة السياسة والحضارة، وأوجدت حضارة شرقية متأثرة باليونان (متفرقة). وكان تأثير آسيا فى اليونان أقوى من بعض الوجوه - ولاسيما فى أمور الدولة - ولكن

كانت أزمة الحضارة بأيدي اليونان، وقد حافظوا على تفوقهم في الحضارة، حتى بعد أن فقدوا سلطانهم السياسي بتضييق البارثيين عليهم من الشرق والرومان من الغرب<sup>(١)</sup>.

أثبتت روما بإخضاع مصر لحضارتها خطأ رأى أرسطو القائل : « إن غير اليونان من الأوربيين غير مستعدين للحضارة ». لم تكن أوروبا من جهة موقعها الجغرافى فى عهد الرومان من أجزاء العالم الواقعة شمالى آسيا، بل كانت قسمه الغربى. وقد ادعى استرابون، العالم الجغرافى الذى عاش قبل الميلاد بقرن - وقد بين موافقة أوروبا للحضارة من جهة جغرافيتها الطبيعية وإقليمها - تفوق إيطاليا فى الموقع الجغرافى ، ورأى شبه الجزيرة هذا موضعاً يكفل للرومان سيطرتهم على العالم.

وقد أظهر الرومان تفوق أوروبا على آسيا بنجاحهم فى الأعمال الحربية والفنون العملية والقوانين ، كما أن اليونانيين شغلوا الموقع الأول فى الفن والعلم. وبدأ الفرق بين الغرب المتأثر بالرومان وبين الشرق المتأثر بالإغريق فى هذا العهد . وكانت كلمة الشرق تطلق أحياناً إصطلاحاً ملكياً وإدارياً ، « على جميع البلاد الداخلة فى إمبراطورية اسكندر القديمة » مبتدئة بشبه جزيرة البلقان. وأما العالم اليونانى والرومانى فكان يُعد عالماً على حدة فى نظر الرومان أنفسهم أيضاً لا فى تاريخ هذا العصر فحسب ؛ فكل رومانى مثقف ملزم بمعرفة كلتا اللغتين، أى اللاتينية واليونانية. وكان الشرق على هذا المعنى بلاد الدولة الأشكانية غير الداخلة فى حدود الدولة الرومانية . ولم تكن روما تشك فى تفوقها على الشرق حضارة وسياسة . وكان استرابون يُعد البلدان التى تحكمها الدولة الأشكانية (البارثية) « بلاداً آثلة عن قريب إلى الدولة الرومانية ». وأما تاكيتوس Tacitus الذى عاش بعده بمائة عام فلم يأمل هذا ، ولكن لم يحسب الشرق المنهزم عدواً خطراً ، بل زعم أن الخطر الأكبر على الرومان عند الجرمان فى الغرب؛ فإن حب الحرية عند الجرمان أخطر من الدولة الأشكانية. ولكن كان

(١) للحصول على معلومات أوسع فى هذا يمكن مراجعة كتاب لبارتولد عنوانه « تاريخ الأبحاث الشرقية فى أوروبا وروسيا » نشر فى مجلة (ملى تتبعلر مجموعته سى) عدد ٢ ص ٣٦٤-٣٧٤ ، استنابول سنة (١٣٣١)

الشرقيون هم المغيرين على بلاد الدولة الرومانية، المستولين عليها قبل هجوم الجرمان بزمان بعيد. قامت الدولة الساسانية فى القرن الثالث مكان الدولة الأشكانية التى ضعفت. وفى القرن الرابع أبعد الرومان من بحر الخزر نهائيا، وكانوا قد استولوا عليه فى زمن پومپى Pompei، وصارت إيران مزاحمة قوية للدولة الرومانية الساسانيين كذلك واستولت برأ وبحراً على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر. وبهذا الحادث يبتدىء انتقال التفوق فى الحضارة من أوروبا إلى الشرق الأدنى، ويتجلى هذا كاملا فى عهد المسلمين. إن المسيحية والإسلام ثم مذهب التجديد الأدبى (Humanisme) غيرت آراء الأوربيين فى الشرق مرة أخرى، فصارت معرفة لغة من اللغات الشرقية أمراً محتتماً على كل أوربى مثقف. وكان تاريخ أوروبا وآسيا الدنيا يعدان قسماً واحداً. فالأفكار الواردة فى الكتاب المقدس عن آشور وبابل وإيران ومقدونيا التى تلا بعضها بعضاً، ظلت سائرة فى أوروبا كذلك حتى القرن السابع عشر. وبلغت مكانة روما (وتدخل فى هذا روما الثانية أيضاً إلى استانبول بعد انقسام الكنيسة إلى قسمين) حالة من اليقين لا تتطرق إليها شبهة، واعتبرت الأحداث المخالفة لهذه مؤقتة وغير طبيعية. وقد فصل الدين أوروبا عن الشرق غير المسيحى ثم عن المسيحى غير الكاثوليكى. ولكن صار هذا الانفصال التجديد الأدبى الذى أرجع الحالة إلى ما كانت عليه قبل المسيحية. وأما انقسام التاريخ العام إلى ثلاثة أقسام باسم «التاريخ القديم» و «تاريخ القرون الوسطى» و «التاريخ الحديث» منذ القرن السابع عشر، فقد أدى إلى أن يُنظر إلى الشرق كأنه عالم بقى منعزلاً عن تأثير الحضارة اليونانية والرومانية فى الزمن القديم ثم عن الحضارة التى بدأت بنهضة تلك الحضارة القديمة فى الأزمان المتأخرة. فبدأ الماضى ومعه التاريخ العام بتاريخ اليونان عند أصحاب هذه الآراء. وقد كان بعض علماء اللغات القديمة (كلاسيك) يحاول أن ينكر أن تاريخ اليونان هو امتداد لتاريخ الشرق القديم حتى بعد استكشاف القرن التاسع عشر.

ولا يرتاب معظم مؤرخى زماننا فى وجود حياة مدنية مديدة ذات طبقات مختلفة فى الشرق الأدنى ومصر قبل تاريخ اليونان. وهذه الحضارة، كالحضارة اليونانية، لم تتولد من عبقرية قوم بعينهم، بل ولدت وترعرعت تحت تأثير العلاقات الدولية التى كانت فى ازدياد

مطرد. وبهذا المعنى، يفهم مؤرخ «الشرق القديم» فى زماننا من هذا الإصطلاح، الساحات التى تمتد من القوقاز والشرق الأدنى (أوك آسيا) إلى بحر الهند وبحيرات أفريقية؛ وما بين إيران والهند إلى جبل طارق. ويكون تاريخ هذه البلاد وحدة منفصلة انفصلاً تاماً.

وفهم من هذا التعريف أن بلاد الصين والهند التى هى الممالك الشرقية للعالم القديم حقيقة، لا تدخل فى الشرق الأدنى الذى يُعد جزءاً من تاريخ العالم. وقد اتخذ مفكرو أوروبا لهذه البلاد اسماً مستقلاً وهو الشرق الأقصى. ويتصدى بعض المفكرين لإثبات أن تاريخ الشرق الأقصى عبارة عن رقى مدنى مستقل عن الغرب. وإذ كانت الحضارة الأوربية وحضارة الشرق الأدنى قائمتين على أساس واحد، فهم يزعمون استحالة الحصول على المواد الضرورية لإتمام النتائج التى أمكن الحصول عليها بتمحيص القوانين التاريخية المأخوذة من تاريخ الغرب إلا بالتدقيق فى تاريخ الشرق الأقصى ولكن قد ثبت فى الأزمان الأخيرة أن الهند وقعت فى تأثير حضارة الشرق الأدنى (نشأت الحروف الهجائية السنسكريتية من الشرق الأدنى)، ووقعت الصين فى تأثير الهند. ولكن كانت علاقة الشرق الأقصى بالشرق الأدنى أبعد من علاقة الشرق الأدنى بأوروبا؛ فيلزم أن تُعد حضارته حضارة مستقلة. وقد دامت التقاليد المدنية القديمة فى الصين والهند بدون انقطاع رغم التأثيرات الدخيلة والحركات الداخلية. وأما الشرق الأدنى فلم يوفق إلى قراءة الهيروغليفية المصرية والكتابة الأشورية والإيرانية فيه إلا الأوربيون.

إن تفوق الغرب بمعناه الواسع (أعنى الشرق الأدنى وأفريقيا الشمالية وأوروبا معاً) على الشرق الأقصى يفسر بكثرة ما وقع من التبدل فى النصف الغربى من العالم القديم بالقياس إلى النصف الشرقى منه. وقد انتقلت طرق التجارة من سيطرة الشرق الأدنى إلى سيطرة الأوربيين. واحتفظ الغربيون بتلك الطرق من عهد الفينقيين إلى زماننا هذا. وليس للتاريخ علم بأن قوماً خرجوا من الهند أو الصين وحاولوا أن يسيطروا على طرق التجارة الخارجية التى تملكها الممالك الغربية ويدخلوها فى سلطانهم السياسى والاقتصادى.

ويمكن أن يُعد اليوم من الحقائق الثابتة أن العلاقات المتبادلة بين الأقسام من أكبر عوامل الرقى. ولا يمكن إيضاح تقدم الشعوب المختلفة أو تأخرها بما لها من ميزات جنسية

ومعتقدات دينية أو ما تحيط بها من الطبيعة، بل بموقعها الذي أحرزته فى علاقاتها مع شعوب متباينة فى مختلف عصور تاريخها. فمهما كانت الأقسام المنسوبة إلى الجنس الهندى الأوربى متفوقة على غيرها من الأجناس ، فإنها لو عاشت عيشة منعزلة عن الأجناس الأخرى، كحالة اللتوانيين إلى القرن الثالث عشر أو فى صورة من المعيشة كمعيشة قبائل الـ « كافر » على جبال « هندوكش » حتى نهاية القرن التاسع عشر ، لظلت متوحشة حتى اليوم. ومهما كانت مزايا النصرانية بالقياس إلى الإسلام؛ فإن حضارة العالم الإسلامى ما فتئت متفوقة على الحضارة المسيحية حينما كانت تجارة العالم بأيدي المسلمين. ومهما بلغت مزايا أوربا فى إقليمها وطبيعتها وموقعها الجغرافى بالقياس إلى القارات الأخرى؛ فإن هذه المزايا ما ظهرت إلا بعد أن أخذت أوربا تشغل الدرجة الأولى فى العلاقات المدنية. وكذلك الحضارة الإسلامية؛ فإن تقدمها أو تأخرها يثبت بالعوامل التى ذكرت آنفاً أكثر مما يثبت بتعاليم هذا الدين أو بالخواص الجنسية للأمم الإسلامية المختلفة<sup>(١)</sup>.

---

(١) بدل أن يجعل العوامل الرئيسية فى رقى الأمم الجنس أو البيئة الجغرافية أو الدين كبعض العلماء ضيقى النظر الناظرين إلى جهة واحدة، أظهر بارتولد بعقل المؤرخ، عوامل هذا الرقى المختلفة ولا سيما أسبابه الاقتصادية. إننا نشاهد أن هذا المؤرخ الجليل لا يقبل ادعاء بعض العلماء بتفوق الأقسام الهندية الأوربية أصلاً على غيرهم من الأقسام - وهو ادعاء ليست له ماهية علمية - إلا أننا لا نقدر على المضى بدون تصحيح هفوة صغيرة لمؤلفنا وهى: أن الأقسام الهندية الأوربية أو الأقسام الهندية الجرمانية كما يقول الألمان، لا يكونون وحدة بمعناها الأنثروبولوجى Antropologique ولا يدل هذا التعبير إلا على وحدة لغوية . وقد جاءت براهين المؤلف دافعة للنظرات الضيقة التى تحاول أن تجعل الدين الإسلامى مسئولاً عن تأخر الأمم الشرقية فى العصر الأخير.





## الفصل الأول

### الشرق المسيحي وخطورته للإسلام

نشأ مع المسيحية ، على رأى توريانف الأستاذ الروسى المتخصص فى تاريخ الشرق الأدنى، أسلوب جديد للنظر إلى الدنيا. وشرع هذا الأسلوب فى نزاع موفق مع الوثنية اليونانية والرومانية والوثنية الشرقية على السواء، وقبل أن يتم هذا التجديد الذى بدأ فى الشرق مع المسيحية، نشأ دين جديد مزاحم له.

ولم ينحصر نزاع المسيحية مع الوثنية فى دائرة دينية؛ فقد كان أكثر المبشرين من النصارى يكرهون العلوم والفنون المتصلة بالعقيدة الوثنية. ولم يكن عند نصارى القرن العاشر المؤمنين بقيام الساعة بعد زمن قليل، ما يدعو إلى الاهتمام بشئون الدولة وتقديم الحضارة مادياً وأدبياً.

ومع أن الكنيسة كانت سبباً لسقوط العلم والفن اللذين كانا يفهمان عند طبقة خاصة، فإنها أفادت من جهة أخرى فى رفع مستوى سواد الناس . لقد وزعت الكنيسة الكتب الدينية على قوام كثيرين بعد أن كتبتها بلغاتهم القومية التى يفهمونها . ومن المعلوم أن الأدب القومى انتشر كثيراً بعد أن كان محصوراً فى أماكن قليلة.

وكانت الأحوال فى الولايات الآسيوية ومصر أكثر ملاءمة منها فى ولايات الدولة الرومانية الأخرى (ولاسيما بعد أن صارت الدولة فى أيدي برايرة الجرمان، وزُكِلت بلاد البلقان حتى استانبول بتعرضها لهجمات السلافين).

وأنشئت فى الشرق الأدنى ومصر فى عهد الحضارة اليونانية مدن عظيمة كسفت المدن القديمة سعة وعمراً. فكانت مدينة الاسكندرية بمصر، وأنطاكية بسوريا ، وسلوقية (سلفقية - سلفكه) على شاطئ دجلة ، تلى مدينة روما إتساعاً. وشرع مبشرو النصارى فى نشر الدين بين طبقات الوطنيين الدنيا المقيمين فى المدن الكبيرة التى انشأها اليونان.

ووجدت كتب جديدة مؤلفة أو مترجمة في اللغات المحلية، ولا سيما السريانية والقبطية، مع تأليف كتب دينية باللغة اليونانية الدولية. وبدت الآداب النصرانية في اللغات الأخرى أيضاً مسيطرة انتشار النصرانية خارج الإمبراطورية الرومانية (في اللوية والحبشية في أفريقيا؛ والأرمنية والكرجية في آسيا وغيرها من اللغات). وهناك كتب بقيت من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية أيضاً استعملت لغة الكنيسة ولكن لم يثبت إلى الآن وجود أدب نصراني عربي في العصور التي قبل الإسلام.

إن انتشار النصرانية فيما بعد ونجاحها الكثير في الحضارة مرتبط بالمنازعات التي كانت بين روما وإيران ارتباطاً وثيقاً. وكان أكثر هذه المنازعات يحدث في حوض دجلة والفرات فكان أمراء هذه المناطق وولاتها ينتقلون إلى هذا الجانب حيناً وإلى ذاك حيناً آخر باختلاف طالع الحرب.

ولمدينة أديسه (الرُّها العربية وأورفه الحالية) الواقعة شرقي الفرات على الطريق الآتية من سوريا الشمالية، موقع ممتاز في تاريخ النصرانية وحضارة سوريا. وكان أبكر التاسع (١٧٩-٢١٦م) ملك أديسه أول من تنصر من الملوك. وتروى أسطورة النصرانية أنه عاش في أيام عيسى عليه السلام وراسله. وأديسه وطن خطير لحضارة سوريا القديمة، ومنشأ الكتابة السريانية. وقد ازدهر فيها في القرن الخامس مذهب يدعى «مدرسة اللاهوت الإيرانية» أثرت كثيراً في انتشار النصرانية وتقويتها في إيران. ومن قبل هذا نشأ في أديسه الكاتب السرياني بردسان (١٥٥-٢٢٢م) ولد بردسان وثنيًا ثم تنصر ثم ارتد إلى الوثنية ثانيًا. وحاول التأليف بين الفلسفة الوثنية المسماة الغنوستية Gnosticism وبين بعض آراء النصرانية؛ وهو أول ممثل لمذهب معاد للعهد العتيق عداءً شديدًا. ولا ريب في أن آراءه قد أثرت في المانوية التي ظهرت في إيران في القرن الثالث<sup>(١)</sup>.

(١) عانت المسيحية أزمتين كبيرتين في القرنين الثاني والثالث، إحداهما أزمة الغنوستية gnosticism والأخرى الأزمة المونتانية montanisme. لقد شعر بارتولد بالحاجة إلى إيضاح بسيط للأزمة الأولى لعلاقتها الوثيقة بتاريخ الشرق والإسلام. فالغنوس gnosis معناها «المعرفة العالية ذات الأسرار» وتسمى العقائد الدينية والفلسفية المختلفة التي تتصل بـ «غنوس» الغنوستية. وفي العهد الجديد إشارات ضد هذه المعتقدات التي كانت قبل المسيحية. ومع وجود أسرار مشتركة بين الغنوستيين الذين يؤمنون بوقوفهم على معرفة عالية ذات أسرار لا يطلع عليها غيرهم، فإن هناك مذاهب غنوستية قد نشأت من أصول مختلفة و متميزة عن بعضها من =

## واضطر مبشرو النصرارى أيضاً إلى استخدام الأدلة الفلسفية فى نزاعهم مع الفلسفة الوثنية

= حيث عقائدها . وتشاهد تحت هذا الاسم مذاهب مختلفة نشأت من الوثنية واليهودية والمسيحية، اختلطت عقائدها بعضها ببعض ونشأت من أصول قديمة جداً؛ فيمكن أن نجد فى العقائد الغنوستية كثيراً من العقائد الدينية المأخوذة من ديانات بين النهرين وإيران وفنيقية ومصر؛ فالغنوسى فى الحقيقة هو تيوذوفى théosophic يحاول إيصال الروح إلى العلاء بإنقاذها من ضيق العالم الجسمانى أو الشياطين أو النجوم . وقد أظهر بعض كبار الغنوستيين من النصرارى أمثال باسليد Bacilide وفالتين ومارسيون تطوراً حديثاً فى الغنوستية متأثرين بفلسفة اليونان وتصوفهم، ونفوذ العقائد المسيحية، عوضاً عن العناصر الشرقية . فقد أحدث فالتين مثلاً، مذهباً فلسفياً دينياً ونظرياً متأثراً بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة وقريباً جداً من العقائد النصرانية. وفى الجملة فإن ثمة فرقاً شاسعاً بين ثنائية الغنوستيين وثنائية المزديين (أى الزردشتيين) « فأما فى المزدية فكلا العالمين المتقابلين أى عالم النور وعالم الظلمة جسمانيان (ماديان) وروحانيان (معنويان) معاً. وأما فى ثنائية الغنوستيين فعالم النور معنوى وعالم الظلمة جسمانى.

ويجب نقد وتصحيح المعلومات التى سردها بارتولد عن بردسان من بعض الوجوه . لقد تربى هذا الرجل الذى ولد بأورفه (فى ١١ تموز سنة ١٥٤م) من أسرة أرييلية ، مع الأمير أبكر الذى حكم فى أورفه (١٩٩-٢١٤م) وتنصر مع رعاياه عام ٢٠٦م . ويروى أنه قبل عقائد فالتين الغنوستية بعد أن تنصر ثم ترك كثيراً منها ورجع إلى العقائد الأرثوذكسية وتوفى سنة ٢٢٢م.

وبناء على التحقيقات الأخيرة لمؤرخى النصرانية الباحثين فى هذه المسألة خاصة لا يجوز عده غنوستياً حقيقياً مطلقاً ؛ فبناء على رأى فى. ناو F. Nau الذى أبداه فى نهاية القرن التاسع عشر تعد عقائده تنجيمية أكثر منها غنوستية. هذا ما يدعيه بعض المراجع القديمة ومن أهمها دعوى أغاپيوس Agapius . ويشترك فى. هأس F. Haase وهو أكثر العلماء شهرة بالاشتغال فى هذه المسائل بعد F. Nau ، فى آراء هذا الأخير مبدئياً مع استنكاره لبعض آرائه.

وقد اعتبر بارتولد ، الذى يظهر أنه لم يطلع على هذه التمهيدات، بردسان رجلاً غنوستياً كما اشتهر من قبل، وعده ثنائياً متبعاً رأى مؤلف كتاب الفهرس، كما وجد علاقة كبيرة بين عقائده وعقائد المانوية، وهذا التشابه الذى رضى به مؤلفنا قد سبق أن ذكره مارتوتا. (انظر فى هذا الموضوع M.Ad. Franck فى Dictionnaire des sciences Philosophique طبع بباريس سنة ١٨٨٥؛ وكتاب C. Clement المسمى Religions du monde طبع بباريس سنة ١٩٣٠ فيما يختص بالنصرانية؛ وكتاب E.de Faye المسمى Gnostique Gnostisme طبع بباريس سنة ١٩٢٥، وفى هذا الكتاب الأخير معلومات واسعة عن المراجع . وانظر مادتي Bardesane و Bardesanites فى هذا الجزء الذى ظهر سنة ١٩٣٠ من كتاب Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique

والفلسفة الغنوستية. فظهرت مذاهب دينية فلسفية متنوعة، كان أعظمها فى الإسكندرية وإنطاكية. فأما المذهب الذى فى الإسكندرية فيعتمد على أفلاطون ، وأما الذى فى إنطاكية فيعتمد على أرسطو. وفى القرن الرابع ابتدأت المنازعات الدينية فى بنية المصرية نفسها ، فوقع خلاف بين نصارى الشرق منذ القرن الخامس؛ وقد حدث الخلاف فى الكنيسة عندهم قبل نصارى أوربا ، فانفصل كثير منهم عن المذهب الأصيل المسمى الأرثوذكسية (يجعله خصومه مشتقاً من كلمة ملك ويسمونه ملكياً ويفهمون الناس أنه مذهب الإمبراطور الرسمى). وافترق اليعاقبة الذين لايعترفون لعيسى بغير الألوهية ، والنساطرة الذين يرون استحالة التفريق بين ألوهيته وإنسانيته وكون مريم أم الله . وارتحل النساطرة الذين تعرضوا للاضطهاد إلى إيران. وكان النصارى مضطهدين فى إيران حتى هذا العهد.

وفى عام ٤١٠م وفقوا لعقد مجلس فى مدينة سلوقية الواقعة على شاطئ دجلة . وقبل نصارى إيران معتقدات النساطرة فى اجتماع دينى عقد سنة ٤٨٣م. وفى عام ٤٨٩م هرب نصارى أدسه إلى إيران . وكان الإمبراطور زينو Zeno أغلق المدرسة الإيرانية التى كانت بأدسه بسبب الآراء النسطورية. وصارت إيران فى عهد الساسانيين فى القرن الخامس ملجأ لجميع العناصر المتحضرة المطرودة من بوزنطة من المجوس واليهود وروافض النصارى. وقد حمل الساسانيون من قبل هذا كثيراً من السوريين المقيمين بمدن سوريا إلى إيران. نُقل فى المرة الأولى سكان إنطاكية وبعض مدن أخرى فى زمن شابور الأول (٢٤١-٢٧٢م) الذى أسر الامبراطور قلريان Yalérien فأسكنهم شابور فى مدينة جنديسابور التى انشأها فى خوزستان . ولم تكن جنديسابور مدينة كبيرة فى زمن الساسانيين . وأسست فيها فى عهد خسرو الأول (كسرى أنوشروان ٥٣١-٥٧٩م) مدرسة طب يونانية سورية لها فيما بعد تأثير فى العرب.

وكانت الغاية من حمل سكان المدن السورية إلى إيران كأنهم أسرى أن يعاونوا ترقية الصناعة فى إيران ، ولاسيما صناعة النسيج. وقد استفاد الساسانيون من صناعات روما المأسورين أيضاً فى إنشاء الحصون وتنظيم أعمال الري.

تؤدى المقارنة بين بوزنطة وإيران الساسانيين من القرن الخامس إلى السابع إلى هذه

النتيجة: إن مستوى الحضارة فى بوزنطة أعلى ولكن كانت إيران مملكة ترق أكثر منها . ولم يكن هذا الترقى ملائمًا لأغراض الملوك ملاءمة تامة. ولترقى الساسانيين فى القرن الثالث علاقة برد الفعل الدينى والسياسى . إذ أن دخول الحضارة الغربية فيها كان يقلق دين الدولة ويؤثر فى نظام الطبقات . وقد نشأ فى إيران مذهب نصرانى رسمى استخدم اللغة الفارسية فى العبادة. وكان لهذا العمل تأثير فى دخول النصرانية فى آسيا الوسطى والصين وفى مستقبل إيران. ولا يزال أسماء الأيام التى أدخلها الفرس النصارى - لا العرب - مستعملة إلى اليوم عند الإيرانيين المسلمين.

وحوالى نهاية القرن الرابع تغير ظام الطبقات تغيرًا تامًا فاتحد الزراع والصناع والتجار، ونشأت منها طبقة ثالثة وهى طبقة العمال المدنيين التى شغل رؤساؤها مكانًا إلى جانب عرش الملك مع الرؤساء الروحانيين ورؤساء الأرستقراطية العسكرية.

وبدأت حملات الجماعات الشعبية تمتد إلى مدى أبعد فتحبذ ، ضد نظام الطبقات الضيق، الآراء المزدكية الشيعوية التى لا تكتفى بإنكار الملكية الخصوصية فحسب بل تنكر الأسرة كذلك<sup>(١)</sup>.

إن القرن السادس الميلادى الذى هو عصر انحطاط التقاليد البوزنطية على وجه عام، كان عهد التعارف بين الإيرانيين والأدب والعلم الأجنبيين وفى هذا العصر ترجم إلى الفارسية قصص كليلة ودمنة التى أحضرت من الهند، وأثرت فى آداب العالم. وابتدأ البحث فى فلسفة اليونان فى إيران وقدم فارس پول إلى خسرو الأول كتابه عن أرسطو باللغة السريانية وهو يحاول فى هذا الكتاب إثبات تفوق العلم على الدين؛ فالعلم فى نظره بعيد عن الشبهة ومنتج للاتفاق والوثام بين الناس بينما يبحث الدين فى أمور مجهولة ويوقع الشقاق بين الناس.

(١) انظر فيما يختص هذه المسائل والمزدكية كتاب A.Christensen المسمى L'Iran sous Sassanides طبع كبنهاج سنة ١٩٣٦ ؛ وكتاب Le Règne du roi Kawadh I et le Communisme Mazdakite للمؤلف نفسه

وبلغت التجارة والصناعة فى أيام الساسانيين أوجهما فى القرن السابع قبيل هجوم العرب. وفى هذا العصر أيضاً كتبت آداب المانوية والنصرانية باللغة الإيرانية المستعملة فى آسيا الوسطى (الصغدية) والتركية. كل هذا يدل على أن دعاية دينية قوية قد انتشرت من إيران. وينبغى أن نذكر أن المبشرين اقتفوا أثر التجار. وفى هذا العهد نفسه ظهرت جاليات فارسية ونصرانية فى الهند.

وقبل فتوح العرب استمرت حروب بين بوزنطة وإيران مدة طويلة (٦٠٤-٦٣٠) وانتقلت جميع ولايات بوزنطة الأسيوية ومصر إلى حكم إيران لمدة قصيرة. وكان والى إيران، حاكم هذه الولايات، يقيم فى الإسكندرية التى أضرت بها الحرب أقل مما أضرت بمدن سوريا. وقد أخذت أنطاكية فى الانحطاط منذ القرن السادس من جراء الزلازل الشديد الذى وقع فى سنة ٥٢٦م، وهجوم الإيرانيين فى عام ٥٤٠. وعمرها الإمبراطور جوستينيانوس ولكنها لم تستطع أن تسترد مكانتها القديمة. ودمر الإيرانيون مدن سوريا فى القرن الخامس وقطعوا أشجار الزيتون وبقيت آثار التخريب ظاهرة فيها بعد مائة عام. ولا بد أن تكون آسيا الصغرى قد أصابها الضرر كذلك من استيلاء الإيرانيين عليها حينما توغلوا حتى استانبول. ولما مال طالع الحرب إلى الإمبراطور هرقل خربت حدود إيران من هجمات البوزنطيين وحلفائهم الخزر بتلك الصورة نفسها. ولم تكتف معاهدة الصلح بأن أعادت إلى بوزنطة بلادها التى أخذت منها، بل أكسبتها بلاداً جديدة فيما بين النهرين<sup>(١)</sup>.

سببت هذه الهزائم سقوط كسرى پرويز (خسرو الثانى) ٦٢٨م واضطرابات طويلة داخلية فى إيران، ولكن بوزنطة ضعفت أيضاً بالحروب. وبدأ اضطهاد الوثنيين واليهود والروافض

(١) إن هرقل الذى حارب الساسانيين فى أعوام ٦٢٢-٦٢٨ الميلادية ثلاث حروب موفقة انتصر عليهم فى أواخر سنة ٦٢٧م بجوار الموصل نصراً مبيئاً وترتب على هذا الانتصار إمضاء الصلح بعد خلع خسرو وقتله وانتقلت سوريا وفلسطين ومصر إلى سلطان بوزنطة مرة أخرى، ونال هرقل لقب باسيلوس رسمياً للمرة الأولى (٦٢٩م)؛ وهذا اللقب لم يعد يحمله بعد هذا التاريخ ملوك الساسانيين الذين كان لهم حق حمله بتصديق من البوزنطيين. وإن هذا الحادث الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم أيضاً، لأحد الأحداث الخطيرة فى القسم الأول من القرون الوسطى إذ قد أوشكت أن تنهار إحدى القوتين اللتين ظلتا متصارعتين قرونًا عديدة للحصول على التفوق فى السيطرة على الشرق.

باستتباب الحكم البوزنطى فى البلاد المستردة؛ فصار هؤلاء المضطهدون جميعًا حلفاء طبيعيين للعرب. واضطر البوزنطيون حتى فى حياة هرقل الذى مات سنة ٦٤١م إلى التخلي للعرب عن جميع الأراضى التى استولوا عليها ما عدا آسيا الصغرى. ولم يقاوموهم مقاومة حسنة إلا فى أماكن قليلة. وفتحت مصر قوة مؤلفة من أربعة آلاف جندى، كما أن سهولة الاستيلاء على شمالى ما بين النهرين حيرت الفاتحين أنفسهم.

إن أظلم عصور الأدب البوزنطى والديانة المسيحية هى العصور التى بين أوائل القرن السابع ومنتصف القرن التاسع. وقد أُلِفَ الناس عزو أسباب هذا الانحطاط إلى حروب بوزنطة مع الإيرانيين والعرب والثورات التى أعقبها مباشرة. ولا ريب فى أن خروج أرقى الولايات من حكم بوزنطة لم يكن خاليًا من التأثير على حياتها. وقد اتسعت حدود الخلافة نحو آسيا الصغرى رويدًا رويدًا وتعرض شبه الجزيرة هذا الذى أنجب فى القرن السادس النابغين الذين بنوا آيا صوفيا، لعدة هجمات مهلكة.

وكانت البلاد التى دخلت فى حدود الخلافة خيرًا منها حالًا رغم الفتن التى فيها، وكان النصرانى أحسن حالًا تحت حكم المسلمين فى الأزمان الأولى، لحاجة الفاتحين إلى هذا العنصر المسيحى المتفوق على العرب حضارة. وقد نبغ فى مصر وسوريا وما بين النهرين رجال علم وأدب من الطراز الأول فى الآداب السريانية واليونانية فى القرن الأول الإسلامى. وليعقوب الأديسى (٦٤٠-٧٠٨م) الذائع الصيت من بين أولئك العلماء مكانة خاصة ممتازة فى المذهب اليعقوبى. وصارت شواطئ الفرات بعد استعادة مكانتها

---

هذا وقد أخذت فى الانهيار بسرعة دولة الترك الأوارية التى كانت تهدد حدود بوزنطة عند نهر دانوب. وهكذا ظهرت بوزنطة فى ٦٢٩م كأكبر قوة سياسية وعسكرية فى الشرق الأدنى بدون مزاحم، إلا أن حادثًا غير منتظر، وهو ظهور الإسلام والسيطرة العربية، انتزع من يد هرقل ثمرات انتصاره على إيران فى السنين الثمانية الأخيرة من حكمه. (انظر A.A.Vasiliev فى كتابه *Histoire de l'empire byzantin* طبع باريس سنة ١٩٣٢ ج ١ ص ٢٦٠-٢٦٤؛ ٢٧٥-٢٧٩، وشرحت هنا العوامل التى تسهل فهم هذا الاستيلاء الذى ظهر فى الوهلة الأولى معجزة لعدم الاطلاع على أحوال بوزنطة الداخلية، وذكرت بحوث خطيرة فى هذا).



القديمة إحدى مراكز حضارة العالم. وقد كانت فيها مدارس عليا لليهود والمناويين زيادة على مدارس المسيحيين العليا. إن الشعوب التي عاشت في حكم المسلمين، استفادت في نشر الدين من العلاقات التي اتسعت بتكون الدولة الإسلامية الممتدة على قسم كبير من العالم، أكثر من المسلمين أنفسهم، كما أن انتشار النصرانية والمناوية في بلاد المغول، واليهودية والنصرانية في القوقاز وشواطئ قوقلجا يعود إلى العصر الإسلامي.

وليست خطورة هذا العهد من حيث الفن المسيحي واضحة كثيراً. ومما لا شك فيه أن ملوك المسلمين استخدموا المهندسين من المسيحيين والإيرانيين في بناء القصور والمساجد. وحوّل بعض الكنائس الكبيرة إلى جوامع. ومن تلك الجوامع، الجامع الكبير الذي بنى في القرن الثامن في مكان كنيسة يوحنا المعمدان بمدينة الشام (دمشق). ومن حسن الحظ أن هذه الكتابة الإغريقية المنقوشة على الباب الجنوبي للكنيسة باقية إلى اليوم وهي «يا مسيح، إن سلطنتك لكل زمان وحكمك لكل جيل»، وقد حافظ النصارى في الجملة على معابدهم، وبنوا كنائس وأديرة جديدة بدون أن يتعرضوا لمقاومة. وأما ما يقال من أن الخليفة عمر منع النصارى من بناء كنائس جديدة وإصلاح الكنائس القديمة فمخترق فيما بعد.

وكانت في بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان ثنست الواقعة جنوبي البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها. وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة، ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم الدينية. وكان في المؤتمر الديني الذي انعقد في القسطنطينية في سنة ٦٨٠-٦٨١م مندوب من القدس أيضاً. ثم إن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً. ولم يزدهر الفن في أزمان الفتوح إلا في مصر. وقد بحث الخلفاء عن وسائل ترقية الفن في سواحل عكا وصور خاصة. وقبيل سنة ٧٢٠م عادت الفلسفة اليونانية من الإسكندرية إلى أنطاكية.

وعاون النصارى المسلمين، منذ النصف الأخير من القرن الثامن على دراسة الفلسفة اليونانية. ويروي أن الخليفة المنصور (١٣٥-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) طلب إلى الإمبراطور أن يرسل إليه مخطوطات في العلوم الرياضية. وقد أقام حنين بن إسحاق أحد أكابر المترجمين من اليونانية إلى السريانية، نحو سنتين في بوزنطة وتعلم اللغة اليونانية وأدبها

ثم رجع منها بمخطوطات. وكان للمسلمين طريق آخر غير بوزنطة لتلقى العلوم اليونانية وهو مدرسة الطب بجنديسابور (شاهبور) والتي بقيت قرونًا عدة بعد فتح المسلمين. وهناك مع هذا رواية تدل على حفظ أطباء جنديسابور لعلومهم بواسطة رجالهم جيلا بعد جيل وإخفائها عن الأجانب. وأما تيوفيلوس الفلكي الرهاوي (الأدسي) الذي أقام فى قصر المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ / ٧٧٥-٧٨٥ م) وترجم الألياذة والأدسه إلى اللغة السريانية فلا يُعلم أقام فى بوزنطة أم لم يُقم.

إن العناصر غير العربية وغير الإسلامية من العناصر المقيمة فى بلاد المسلمين، كانت أكثر تنورًا بالقياس إلى العرب والمسلمين. وإدراك هذه العناصر تفوقها على العرض حضارة أنتج ببعض آراء قومية فى العالم الإسلامى عرفت باسم الشعوبية. وكانت الحملة القائمة على هذه الصورة لإنهاض الحضارات القومية أو الدينية ظاهرة على هذه الشاكلة فى الأمم الأخرى : بين النصارى المؤلفين من أقوام مختلفة ، واليهود والإيرانيين الزردشتيين ، وعند آخر الممثلين للوثنية الإغريقية فى مدينة «حران» فيما بين النهرين. وكان القرن التاسع عهد رقى لحضارة بوزنطة أيضًا إلا أن بلاد الخلافة كانت متفوقة على بوزنطة فى أن العناصر المختلفة كانت تعمل فيها جنبًا لجنب ، وكانت ساحة انتشار الحضارة أوسع ، لضروب من الحرية الدينية التى يمنحها القرآن. ومع ذلك لم يكن سعى كل فريق منهم لإنهاض شعبه ودينه مانعًا من تلقى دروس الحضارة بعضهم من بعض؛ فكان للنصرانى طلبة من المسلمين والمجوس كما كان عكس هذا . إن النصارى كانوا أقرب إلى الإغريقية (هلنيزم) منبع العلم، إلا أنهم لم يثابروا على المحافظة على تفوقهم هذا. فقد استأنسوا بالمؤلفات اليونانية قبل المسلمين وأجادوها أكثر منهم، غير أن ترقية هذا العلم وإبداع نماذج للدراسات العلمية من بعد، استأثر به المسلمون؛ فلم يقدر السريانئون، وهم أرقى الشعوب النصرانية فى الشرق، على أن ينجبوا عالمًا واحدًا يصح مقارنته بالفارابى وابن سينا والبيرونى وابن رشد. وكان المسلمون فى أكثر الأحيان من خير طلبة علماء النصارى والوثنيين. وتتقدم الحضارة العربية فقد نصارى سوريا علاقتهم بالإغريقية التى كانت ضامنة لتفوقهم سابقًا ؛ فأعطيت اللغة العربية وأدبها فى برنامج تعليمهم العالى مكان اللغة الإغريقية وأدبها فيما سبق.

ولكن لا ينبغى أن يظن ، نظرًا إلى هذه الحال، أن الحياة النصرانية المدنية الشرقية فقدت خطورتها وتأثيرها فى سير حضارة العالم بعد ازدهار الحضارة الإسلامية؛ فإن تفوق

المسلمين في العلم والعمل ظل مدة طويلة تفوقاً في الكيفية لا في الكمية؛ فكانت الأعمال الفكرية كالكتابة والطبابة في النصف الثاني من القرن الحادى عشر الميلادى لا تزال في أيدي النصارى وكانت التجارة والصناعة في أيدي اليهود. وتفاهمت المذاهب المختلفة في سوريا في القرن الثانى عشر، فحدث تقارب بين مذهبي النساطرة واليعاقبة وهما أكبر هذه المذاهب شأنًا؛ فأخذ كل منهما يتسامح مع الآخر بالرغم من محافظة كل واحد منهما على معتقداته وعباداته.

وأخذت حالة النصارى التابعين للدول الإسلامية تسوء منذ منتصف القرن الثالث الهجرى. وكان أحد أسباب هذه الحالة تناقص حاجة المسلمين إلى النصارى بتقدمهم في الحضارة. وربما كان للاضطهادات التى وقعت على المسلمين واليهود فى بلاد النصارى فى القرون الوسطى، أثر فى هذا. ومهما يكن من شئ فإن النصارى الذين عاشوا فى حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين فى أسبانيا من الظلم والعدوان. ولم يكن، بوجه عام، يُطلب إلى الأقوام غير الإسلامية تنفيذ الشروط حرفيًا كارتدائهم ثوبًا مميزًا لهم طبقًا لما ورد فى عهد عمر المشهور، أو دفعهم الجزية كما يأمر به القرآن. فكان العمال النصارى يلبسون أثوابًا كأثواب عظماء المسلمين، ويجعلون لأنفسهم مقامًا عاليًا أمام العامة. وكانت مغالاة النصارى وترفعهم على هذه الصورة تسبب ارتفاع الأصوات بالاستنكار، وتصل أحيانًا إلى نهب أموالهم، بل قتل بعضهم. وفى خلال الشغب تُهدر حقوق الذميين أكثر من حقوق المسلمين؛ ففقدت الكنيسة رويدًا رويدًا عقاراتها وهى أعظم ثروتها. وكانت الكنيسة فى مصر تملك فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر م) ٢٥٠, ١١ فدانًا من الأرض وذلك بعد مصادرات عديدة. اختفت النصرانية من بلاد إيران اختفاء تامًا إلا فى الزاوية الغربية القصوى، وكيفية هذا الاختفاء مجهولة إلى الآن. لم تختف النصرانية أول الأمر اختفاء تامًا إلا فى أفريقية الشمالية، فى البلاد الواقعة غربى مصر من البلاد الداخلة فى حدود الإمبراطورية الرومانية، إلا أن أسماء البلاد الباقية من العهد اليونانى والرومانى ظلت محفوظة (مثل طرابلس وهو اسم Tripoli ومقاطعتها وقسنطينة فى الجزائر Constantin). وليس سبب اختفاء النصرانية فى هذه البلاد أيضًا واضحًا.

ويمكن تفسير ذلك بعض التفسير بأن تعرض شمال أفريقية لهجمات العرب كان أكثر

من تعرض البلاد الأخرى. وكذلك تعرضها لغارات البدو فى منتصف القرون الوسطى (فإن مدينة قرطاجنة التى أعاد الرومان بناءها والتى صارت، على رواية، إحدى المدن الرومانية المهمة بعد روما، دمرها العرب فى القرن السابع ولم تستطع النهوض بعد ذلك).

إن البلاد التى رجعت إلى حكم المسيحيين بعد الفتح الإسلامى والتى لم تزل محافظة على آثار الحضارة الإسلامية، لجديرة بأن يبحث فى تاريخها بحثًا مستقلاً. هذه البلاد هى أسبانيا التى كانت لملوك قشتالة، والتى ألف فيها لألفونس العاشر فى منتصف القرن الثالث عشر جدول الهيئة المشهور؛ وصقلية وجنوب إيطاليا التى كانت فى أيدى النورمانديين ثم صارت إلى أسرة هوهنشتوفن؛ ومملكة الكرج فى القرون الثلاثة من القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر. وأما بلاد أرمينية والكرج فقد أُلقتا فى القرن السابع عيئتين مختلفتين وحافظتا على علاقاتهما بالعالم اليونانى بالتأثير الدينى ولكنهما لم تنجوا من تأثير الحضارة الإسلامية (العربية والفارسية)؛ فإن كلاً من الأدب الأرمينى والأدب الكرجى يمت بقراءة إلى الأدبى الفارسى<sup>(١)</sup>. وقد حافظ أفراد الشعب فى الجملة، بالرغم من عدم ملاءمة العوامل المحيطة بهم كثيراً، على تقاليدهم الدينية وبعض تقاليدهم الحضارية محافظة قوية حتى بعد فقدهم الاستقلال السياسى. وفى القرن السابع عشر نقل الشاه عباس كثيراً من الأرمن والكرج عنوة لأغراض حضارية كما فعل الساسانيون بالسوريين قبلاً. وقد أخذ الأرمن يتقربون من الحضارة الأوربية فى القرن السابع عشر؛ وأما الكرج فأحسوا بتأثيرهم فى القرن الثامن عشر.

---

(١) تأثر الكرج والأرمن بعد الإسلام بالعرب والفرس أولاً ثم تأثروا بالأتراك تأثراً شديداً. ولكن لم يميز الباحثون فى هذا الشأن إلى اليوم تأثير الفرس من تأثير الترك بل أسندوه إلى إيران أيضاً، فى حين أن هذا التأثير ظاهر بوضوح فى اللغة والأدب وفى شعب الفنون الجميلة المختلفة وفى نظام الدولة منذ ظهور الدولة السلجوقية الكبرى حتى اليوم. وليست قصة «الفارس ذو الفروة النمرية» المشهورة التى ألفها شوتا روستافلى شاعر الكرج الأعظم فى القرون الوسطى متأثرة بإيران فقط بل هى متأثرة بالترك أيضاً. وانظر فى تأثير الأدب التركى فى الأدب الأرمينى مقالنا (تورك أدبياتك أرمينى أدبياتته تأثيرى، أدبيات فاكولته سى مجموعته سى، عدد ١ ص ١-٣٠ طبع استانبول سنة ١٩٢٢).

ورأى الأوروبيون المقيمون في سوريا ومصر مسيحيي هذه البلاد حلفاءهم الطبيعيين؛ فأقاموا في أديرتهم زمناً طويلاً وتعلموا اللغة العربية، استعداداً للتعارف مع الشعب والبيئة عن كثب؛ فلذا نشر وترجم في أوروبا في القرن السابع عشر كتب المكين وأبي الفرج مؤرخي القرن الثالث عشر من نصارى العرب قبل نشر المؤرخين المسلمين.

وفي الوقت نفسه بدأت نهضة أدبية في نصارى العرب بتأثير أوروبا، كما حدث عند الأرمن. لأنه لم يكن يفصل النصارى الشرقيين من الغرب اختلاف كاختلاف الدين الشاسع الذى يفصل المسلمين عنهم. ثم إنهم لم يكنوا قد تأثروا كثيراً بالأدب القومى غير الدينى. فلذا راج فيهم أدب اليونان، لا علمهم فقط، إلى حد ما، بعكس ما عند المسلمين سواء في القرون الوسطى وفي العصور الحديثة. وقد ترجم سريانى نصرانى كتابى الإلياذة والأودسه في القرن الثامن، وأما العربى النصرانى فنقل الإلياذة إلى العربية في القرن التاسع عشر. قال أحد علماء الروس إذ عاد من سوريا سنة ١٨٦٤م : «إن نصارى الشرق متقدمون في العلم تقدماً لا بأس به بالقياس إلى المسلمين».

ويقول أحد مؤرخى الأديان من الروس وهو يحكى ما حدث في زمن الحروب الصليبية: «إن الروحانيين والشعب يرون عودة ظلم المسلمين خيراً لهم من الحياة في حكم اللاتينيين». وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر التمس أرمن «اچماجين» من شاه إيران مرات عديدة حمايتهم من الدعاية الكاثوليكية. وأما تأثير الضغط الاقتصادى الذى يقوم به الأوروبيون فى وقتنا هذا فيظهر فى المسيحيين كما يظهر فى المسلمين. وقد كتب صحافى مسيحي فى سنة ١٩١٢ مقالا فى الصحف العربية ردّاً على مقال كتبه أحد كتاب المسلمين محبباً إلى اتحاد المسلمين فقال: «يجب أن يتحد ضد الأوروبيين جميع الأقسام الشرقية بدون النظر إلى الفروق الدينية، لا المسلمون فقط. ويجب أن نعمل للوحدة الشرقية لا الوحدة الإسلامية». وأخذ المثقفون فى الشرق الأدنى كذلك يقدمون الاتحاد القومى على الاتحاد الدينى متأثرين بالآراء الأوروبية؛ فمن المحتمل أن يتحقق منذ الجيل الحاضر اتحاد العرب المسيحيين مع العرب المسلمين للتعاون على نهضة القومية العربية. ويستعمل أمين الريحانى، أحد كتاب العرب فى زماننا، عبارات للتعبير عن معتقدات المسلمين والنصارى وكتبهم المقدسة يعسر فيها معرفة الكاتب أمسلم هو أم مسيحي.

## الفصل الثانى

### الخلافة ومبدأ الحضارة العربية

نشأت فى العالم فى القرن السابع دولة عظيمة من شبه جزيرة العرب للمرة الأولى والأخيرة فى التاريخ، وبدأت حركة جديدة . ولكن يُظن أن الساميين تدفقوا من جزيرة العرب بهذه الصورة فى عهد سابق للتاريخ وشغلوا سوريا وما بين النهرين، وقد مُهد لحركة القرن السابع بحركات العرب الصغيرة التى امتدت من قبل خارج شبه الجزيرة ولكن لم تبلغ درجة الفتوح . وكانت البلاد الواقعة شرقى الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة حوالى سنة ٤٠١ قبل الميلاد. كما أن المدن القبطية فى مصر العليا كانت نصف عربية منذ زمن استرابون حتى القرن الأول الميلادى. وقد اشترك عرب سوريا التابعون لبوزنطة وعرب حوض الفرات التابعون لإيران اشتراكاً قوياً فى الحروب التى وقعت بين هاتين الدولتين.

وفى القرن السابع والقرن الثامن أدخل العرب تحت سلطانهم أقواماً كثيرين يفوقونهم حضارة إلى درجة لا تقبل القياس، إلا أنهم لم يفقدوا قوميتهم كما فعلت الشعوب الجرمانية فى أوروبا والمغول فى آسيا . بل أكثر من ذلك، قد أدخلوا سوريا وما بين النهرين ومصر وأفريقيا الشمالية من البلاد التى استولوا عليها، فى قوميتهم. ولم تكن غلبة اللغة العربية بعد ذلك بسلطان الحكومة بل بالاختيار . وقد اضطرب نظام الخلافة المالى اضطراباً شديداً بانتشار الدين الإسلامى فى البلاد التى خضعت لسلطانها . وكان انتشار اللغة العربية فى الأقاليم غير الإسلامية أمراً لا ترغب فيه الحكومة كثيراً؛ فمنع تكلم النصارى اللغة العربية وتعلم أربادهم فى مدارس المسلمين. ورغم هذه الحال صار الإسلام ديناً رغب فيه أكثر الشعب، واتخذت الشعوب غير المسلمة اللغة العربية لغة لها.

ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم نشثوا منذ القرن السابع الميلادى لغة أدبية متقدمة فى ساحة الفكر تقدماً واضحاً؛ وأخذت البلاغة والشعر مكانة عظيمة عندهم واخترعت الأشكال الأدبية المعلومة اليوم، والنثر المسجع وأنواع عديدة من الأوزان، واتخذت المنظومات أساليب معروفة؛ فراج قرض الشعر كثيراً لمدح أبطالهم وقبائلهم وذم أعدائهم. وكان يقابل شعر البدو، شعر خاص بأهل المدن أرق من شعر البدو. وكانت قريش مكة أرقى القبائل فى هذا. وإن تكن قريش مكة وثقيف الطائف وغيرهم من أهل المدن قد أظهروا عداوة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فى بادئ الأمر، فإنهم صاروا على رأس جماعة المسلمين بعد أن قامت الدولة، وأسندوا إلى محمد حديث «الإمامة من قريش». وترأس القرشيون فى إنشاء المدن وتنظيم الإدارة فى البلاد المفتوحة. وكان العرب من سكان المدن يتعقبون أثر الجيش العربى عمومًا، فهم الذين قاموا بأجل خدمة فى تقوية القومية العربية فى البلاد التى فُتحت.

وقد نشأت أصول المدن الإسلامية من امتزاج التقاليد المحلية - كما فى جميع ساحات الحياة الحضارية الإسلامية. حاول بعض الرحالين من الأوربيين تحليل بناء البيوت فى المدن الإسلامية داخل ساحة الدار، وجعل الواجهات المقابلة للشوارع جدراناً وحوانيت بأنه ناشئ من خوف «الاستبداد الشرقى». ولكن أثبتت حفائر مدينة «بومبئى» أن المدن اليونانية القديمة أنشئت على هذه الصورة نفسها. وقد دهش عدة من الأوربيين الذين وقفوا لزيارة مكة إذ شاهدوا بيوتاً تُطل نوافذها على الشوارع على نسق المدن الأوربية. وفى مدن اليمن بيوت كبيرة مزخرفة لفتت نظر السائحين ولكن لم يُعلم إلى الآن هل هى بُنيت على التقليد المحلية أو على التقاليد الهندى الدخيل.

وقد حافظ العرب زمنًا طويلاً على حياة العشيرة والقبيلة حتى بعد انتقالهم إلى الحياة الحضارية؛ فكانت العلاقة بين رجال قبيلة واحدة أوثق من العلاقة بين سكان مدينة واحدة. وإذا فُتحت مدينة أنشئت أحياء خاصة بكل قبيلة؛ فوجود جدران ذات أبواب بين الأحياء بل بين الشوارع فى كثير من المدن كدمشق، متصل بفهم العرب للحياة هذا الفهم. وقد حمل

العرب هذه العادة إلى إيران أيضاً؛ فإن تأسيس مدينة مَرُو مثلاً في القرنين الرابع والخامس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر) كان على هذه الصورة نفسها. وليس لمدينة همذان فى زماننا، سور عام يحيط بها، ولكن بها أبواب بين أحيائها تُقفل ليلاً، وتوجد مثل هذه الأبواب حتى فى الحارات التى حول المدينة.

ولم ينشئ العرب مدينة جديدة فى سوريا فى القرن السابع الميلادى. وأنشئت فى القرن الثامن فى زمن الخليفة سليمان (سنة ٩٦-٩٩ هـ / ٧١٥-٧١٧م) مدينة الرملة على الطريق الممتد من القدس إلى البحر. فانتقلت الحياة إلى المدينة الجديدة بالرغم من مكانة القدس الدينية عند المسلمين، وظلت قرونًا عديدة مدينة فلسطين الرئيسية، إلا أن مكانة الرملة كانت محلية؛ فلذا لم يظهر لها أثر كبير فى ازدهار الحضارة العربية التاريخية. وظلت دمشق القديمة مركزاً للحياة الحضارة والسياسية فى سوريا. ولم تكن حالة المدينة فى ذلك الوقت مما يمكن مقارنتها بعواصم اليوم؛ فإنها لم تمتد خارج الأسوار المبنية بالحجارة إلى النصف الأخير من القرن العاشر. وكان طول الشارع «المستقيم» الممتد من الباب الشرقى إلى الباب الغربى ما يقرب من كيلين. والمسافة من الباب الشمالى إلى الباب الغربى كانت أقصر منه قليلاً. وكانت وسط المدينة ساحة واسعة بها معبد ضخم (كان هذا المعبد للوثنيين ثم صار للنصارى ثم للمسلمين)؛ فها هنا كانت كنيسة يوحنا المعمدان التى اضطرت النصارى إلى التخلي عنها للمسلمين فى عهد الوليد الأول (سنة ٨٧-٩٧ هـ / ٧٠٥-٧١٥م) وبنى مكانها جامع بنى أمية المنقطع النظير فى العالم الإسلامى فى زخرفته. وكان بقرب الجامع قصر بنى أمية الذى اختفى فى القرون الوسطى.

وكانت المدن التى أسست لتكون معسكرات، كالجابية ودابق (شمالى حلب) تشغل فى سوريا مكانة فى الدرجة الثانية بعد دمشق. على أن بعض الأماكن من هذا النوع بلغ درجة المدن الكبيرة وفاقَت المدن المركزية القديمة. ومن تلك المدن القاهرة؛ فقد بناها العرب أولاً معسكراً على ساحل النيل باسم الفسطاط (فَسَاتون Fossaton باليونانية واللاتينية ومعناها المحاط بخندق). وكانت تشغل على ساحل النيل الشرقى مكاناً طوله خمسة أكيال فى عرض ميل واحد، وفى وسط الشارع ميدان به مسجد عمرو الذى يحمل اسم فاتح



مصر، ودار القضاء. ومدينة القيروان الخربة في تونس؛ والكوفة على الفرات، والبصرة على حافة شط العرب، وشيراز في إيران، كلها أنشئت لتكون معسكرات كذلك. وأما المدن التي أسست لغير مقاصد عسكرية فكانت أطول أعماراً، كمدينة فاس مثلاً، أنشئت في القرن الثاني الهجرى (نهاية القرن الثامن الميلادى)، ومدينة كنجه في القوقاز، أنشئت في القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى). ولا نجد في التاريخ دليلاً على ترك العرب للمدن التي نشأت من المدن المبنية للجيش بعد تخریب المدن المنشأة قبل الإسلام إلا مرة واحدة، وذلك أن قلعة بروقان الواقعة جنوبي جيحون استبدلت بها مدينة بلخ (بكتريا القديمة).

وقد ساعد العرب في إيران وتركستان على تقدم حياة المدن كما ساعدوا على تغيير أصول المدن. وكانت مدن هذه البلاد تؤلف من قلعة كبيرة تدعى «دز» ومدينة أصلية تدعى شهرستان. ومعنى شهرستان مقر الحكم وهو نفس المعنى الذي تدل عليه كلمة الـ «مدينة» التي أخذها العرب عن سوريا. ولم يكن ميدان التجارة داخل المدينة، بل خارجها بجانب الباب. وتدل على ذلك كلمة «بازار»، ومعناها عمل بجانب الباب، التي دخلت في اللغات الإيرانية والسامية الحديثة من اللغات الأجنبية. وأما في زمن العرب فانتقلت الحياة رويداً رويداً إلى الأحياء التي يقيم فيها الصناع والتجار في الشهرستان. وبنيت هنا أيضاً مدن على نظام مدن الشرق الأدنى، رويداً رويداً. وهذا النظام هو: أن يمتد السوق بجانب الشارعين الكبيرين اللذين يقطعان المدينة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وفي وسط المدينة ميدان فسيح به أكبر مساجد المدينة. وقد تتبع التجار المسلمون أثر التجار اليهود والنصارى الذين سبقوهم؛ فانتقلت الحياة في مَرَوْ في أيام المسلمين وكان من الشهرستان إلى الحى الواقع على حافة نهر «مَجَان»، غربى المدينة. وفي هذا المكان نفسه عاش مطران النصارى قبل المسلمين. وكان في موضع إصفهان، وهى أكبر مدن إيران، حى لليهود قبل الإسلام، على مسيرة بضعة أميال من الشهرستان. واتسعت هذه المدينة منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)؛ فصارت ضعفى الشهرستان القديمة.

كان الولاية يقيمون في المدن الكبيرة وفيها منشآت الحكومة. واقتدى العرب في هذا أيضاً بعادات الشعوب التي أدخلوها تحت حكمهم. وقد بدأ تأثير إيران يظهر منذ عهد

الخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣ هـ / ٦٣٤-٦٤٤ م) ، فأنشئت دواوين للكتابة والحساب . ولعل كلمة «ديوان» التي تدل على معنى chancellerie ، أخذت من اللغة الفارسية . وأما البلاد التي كانت في حكم بوزنطة ، فأخذت المصطلحات فيها من اليونانية واللاتينية ككلمة القسطنطينية questor التي أخذت في مصر من اللغة اللاتينية .

وظلت الأعمال الكتابية في عهد العرب ، بأيدي العمال المحليين وفي اللغات المحلية (في الفارسية واليونانية) ولم يبدأ استعمال اللغة العربية إلا في نهاية القرن الأول الهجري (نهاية القرن السابع الميلادي) . ومن هذا الحين أيضاً بدئ في سك العملة باللغة العربية . وطبعت في البلاد المأخوذة من بوزنطة ، صورة الصليب كما كانت في المسكوكات البوزنطية قبلاً . وأما في ولايات إيران فطبعت صورة بيت النار . ورأى العرب نظام السكة الذهبية في بوزنطة والسكة الفضية في إيران . وظل هذا الفرق حتى بعد أن صارت هذه البلاد إلى العرب فسميت السكة الذهبية عند المسلمين ديناراً (من دينار بوس اللاتينية) والسكة الفضية درهماً (من دراهموس اليونانية) ، ودخل هذا الاسم في إيران بعد إسكندر . وأما كلمة الفلّس ، اسم العملة النحاسية ، فأخذت من كلمة أبّلس اليونانية .

وكان الدينار يُسك في عهد الدولة الأموية في دمشق وفي عهد الدولة العباسية في بغداد . وأما الدرهم فكان يُسك في المدن الكبيرة التابعة للولايات أيضاً . ولم تكن للفلّس إلا قيمة محلية . وكان الدينار منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يزن في إيران الشرقية وآسيا الوسطى مثقالاً واحداً . والدرهم أصغر منه وقيمته تعادل ٢٠ / ١ من الدينار . أى أن العرب اجتهدوا كذلك في المحافظة على النسبة المعينة بين العملة الذهبية والعملة الفضية ، منذ عهد ملوك إيران القدماء حتى دول أوروبا الغربية الحالية . ولكن العرب ، كما يقع دائماً ، لم يوفقوا للمحافظة على ما بين هذين المعدنين من نسبة في جميع الأزمان؛ فكانت قيمة الفضة ترتفع وتنخفض بالقياس إلى قيمة الذهب .

وظل تأثير الشعب في الأعمال الإدارية منحصرًا في دائرة الأعمال المحلية . وإننا نرى مصطلحات مأخوذة من لغات عديدة تستعمل متألّفة معًا في أعمال الخلافة الخاصة بالدولة والإدارة . فالمصطلحات المأخوذة من بوزنطة مثلاً تستعمل في البلاد التي أخذت من إيران ،

كما تستعمل الكلمات المأخوذة من إيران فى الولايات التى كانت لبوزنطة سابقًا . وكانت الرسل التى تنقل رسائل الحكومة فى ذلك الوقت، كما كانت سابقًا ، تسمى «بريد» ، وهى كلمة مأخوذة من كلمة وريدوس Weredus اللاتينية. بينما سماها اليونان انكروس نقلًا عن اللغة الفارسية. وقد شاع المصطلح العسكرى «الجند» كثيرا ، وهى كلمة فارسية معروفة قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فى سوريا فى المعسكرات التى بقيت على حالها ولم تتحول مدنًا. على أن البلاد التى كانت تابعة لبوزنطة سابقًا قُسمت فى عهد الخلفاء إلى عدة أجناد. وكان أمراء المعسكرات التابعة للولايات يحملون لقب أمير مصر مع لقب أمير الجند. ومَصْر كلمة يمنية معناها المدينة، واستعملت مع الكلمات العربية الحقيقية كلمة ال «حرس» لمحافظى الملوك أو الأمراء، وكلمة «شُرطة» للبوليس العسكرى. وكان على رأس الشرطة قائد خاص بها ، وهو فى مقام الجناح الأيمن للأمير. ولعل جميع هذه الرتب مأخوذة من الإيرانيين. لم يكن الخلفاء مستبدين كالإيرانيين فى بادئ الأمر. إلا أن أصول الإدارة الإيرانية اتُخذت نموذجًا لهم. وكان الخليفة فى عهد الدولة الأموية أكثر شبهًا بشيخ العرب أو سيدهم منه بشاه إيران . وقد طلب الخليفة الوليد الأول فى بعض أيامه أن ينادى باسمه فقط اتباعًا لعمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

قبلت الخلافة التقاليد الإيرانية فى أمور الدولة، ولكنها أخذت فى ساحة الحضارة أمورًا كثيرة من بوزنطة ؛ فإن صناعة النسيج المصرية التى جلبت إلى سواحل سوريا فى عهد الخلافة ، ظهر تأثيرها فى إيران وتركستان أيضًا. وكانت الأقمشة التى تحمل اسم مصر تنسج فى إيران وتركستان كما تنسج فى مصر . وأما فى الأزمان الأخيرة فقد تخلى المسلمون عن الأولوية فى الحضارة المادية للصين وعن الثانوية لليونان. نقل عرفى ، وهو مؤلف إیرانى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وكلافيجو Vlovijo السياح الأسباني فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) أقوالا يرددها المسلمون وهى: يزعم الصينيون أنه لا عين فى أمور الفن إلا لهم وأن الأقوام الأخرى عمى. وأما اليونان (الإفرنج عند كلافيجو) فيستثنون من هذا الحكم، فهو عور.

أعطى اليونان المرتبة الأولى فى الحضارة. وابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية

بتأثير المسيحيين فى القرن الأول الهجرى. فإن خالد بن الخليفة يزيد الأول كان أول المحبين لعلوم اليونان، توفى سنة ٨٥هـ (٧٠٤م) ولما يبلغ الأربعين من عمره (وكان صغيراً حين توفى أبوه سنة ٦٤هـ / سنة ٦٨٣م). ويُعزى إليه ترجمة كتب فى علم الهيئة والطب والكيمياء. حتى يُروى أنه وجد الحجر الفلسفى الذى يصنع به الذهب الاصطناعى. وكان خالد أمير مدينة حمص فى سوريا الشمالية، وكان بهذه المدينة معبد الشمس المشهور فى الزمن القديم، ثم كانت بها كنيسة كبيرة احتل المسلمون قسماً منها فيما بعد. وفى رواية أخرى أن المسلمين كانوا يصلون فى قسم من هذا المبنى مع أن قسمه الآخر ظل كنيسة منذ القرن العاشر الميلادى. ويحتمل كثيراً أن يكون المجوس أيضاً يتعبدون فيه فى تلك الأزمان. إن مدينة حمص أحسنت استقبال فاتحى المسلمين أكثر من جميع مدن سوريا الأخرى. ويمكن تعليل ذلك بنظر سكان هذه المدينة إلى الإصلاحات الدينية التى قام بها هرقل نظرة عداً.

وبالرغم من أن المسلمين عرفوا الحضارة اليونانية فى الإسكندرية ومدن سوريا، فقد ظهرت الآثار المدنية المهمة حتى فى ساحة العلم نفسه فى الكوفة والبصرة على شواطئ دجلة والفرات. أنشئت كلتا المدينتين فى عهد الخليفة عمر على النموذج المعتاد؛ ففيها أحياء خاصة بالقبائل وبوسطيهما ميدان به جامع وقصر الوالى. ونُقلت البصرة فيما بعد إلى مكان آخر، فهجرت المدينة القديمة. وأما الكوفة فقد ضاعت مكانتها منذ زمن بعيد. إلا أن الجامع لا يزال قائماً إلى الآن ولو أنه لم يُدرس إلى الآن درساً علمياً كما أن مدينة واسط المنشأة على إحدى روافد دجلة فى أيام الأمويين لم تدرس إلى الآن. وقد فقدت واسط خطورتها السياسية بعد الدولة الأموية إلا أنها ظلت قروناً عديدة مركزاً للتجارة والصناعة.

صارت الكوفة والبصرة مركزين نشيطين للحياة العلمية، ولم يكن فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) مدينة تستطيع منافستهما، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه من قبل الأعجام (غير العرب) الذين أسلموا وتلاميذهم. ثم نشأت فى كلتا المدينتين مدرسة (مذهب) للنحويين واللغويين؛ فكانت مجادلات ومنافسات بين البصريين والكوفيين. ولكن لم يكن أكثر هؤلاء الواضعين للعلوم العربية أيضاً من العرب بل كانوا

أعجاماً<sup>(١)</sup>. وقد رتب الخليل بن أحمد ، وهو رئيس البصريين ، قاموساً للغة العربية. وتعتمد الكتب العلمية والاصطلاحية التي ألفت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في خراسان، على كتاب الخليل (ألف الخليل كتابه المذكور في خراسان) . ويتضح من هذا القاموس تأثير اليونان في علوم العرب، كما ظهر في تصنيف العلوم؛ فُتقسم الفلسفة إلى قسمين كبيرين: وهما الفلسفة النظرية والفلسفة العملية. ويدخل بعض العلماء علم المنطق في قسم العلوم العملية. ويجعله علماء آخرون قسمًا خاصًا . وهناك قسم ثالث من العلماء يسمونه آلة للفلسفة . وللـفلسفة النظرية أقسام ثلاثة أصلية: وهى الإلهيات والطبيعات وبينهما الرياضيات. وتنقسم العلوم الرياضية إلى الأقسام الآتية: الحساب والهندسة والهيئة والموسيقى. تلك هى المعارف التى كونت الحكمة الرباعية لأوربا فى القرون الوسطى (quadrivium)<sup>(٢)</sup> . ثم اعتبر الرياض والمنطق معاً مقدمة لدراسة وفهم الإلهيات والطبيعات . ولم تكن للإلهيات أقسام. وانقسمت الطبيعات أقساماً عديدة، كالطب والكيمياء . ولا فلسفة العملية تنقسم إلى أقسام كالأخلاق والاقتصاد والسياسة . وللنحو والربطوريقا والدياليقظيقا أيضاً مكان بين العلوم، ولكنها لم تكن تتحد فى قسم مستقل . وهناك باب للكتابة والشعر والتاريخ بعد النحو والعقائد والـفقه الإسلامى. ويدرس الربطوريقا والدياليقظيقا فى باب المنطق كأنهما من أقسامه.

(١) تاريخ العلوم الإسلامية والعربية لا يصدق هذا القول على إطلاقه ، فأئمة النحويين فى ذلك العصر كانوا من العرب، ولم يكن سيبويه إلا تلميذ الخليل . وكذلك علوم العقائد والـفقه ، كان للعرب فيها نصيب لا يقل عن نصيب غير العرب فى الجملة. وحسبك أن تذكر أن كل الأئمة المجتهدين، ما عدا أبا حنيفة ، من العرب. انظر المقدمة.

(٢) كلمة لاتينية معناها الطرق الأربعة، وهو القسم الأول المشتمل على علوم الحساب والهندسية والموسيقى والفلك، من القسمين اللذين تنقسم إليهما العلوم البشرية فى القرون الوسطى. والقسم الثانى يسمى الطرق الثلاثة trivium ، وهو يشمل علوم النحو والبلاغة والمنطق . وكانت هذه العلوم السبعة تسمى العلوم الجديدة بالرجل الحر Arts liberraux لغتجة فلسفة لاسماعيل فى

## الفصل الثالث

### بغداد وازدهار الحضارة العربية المتأخر

وُضع في البصرة والكوفة أساس علم الكلام الإسلامى والنحو وفقه اللغة العربية. وكان للقصر العباسى تأثير كبير فى رقى هذه العلوم فيما بعد ، وفى رواج العلوم والمعارف الأخرى عامة.

وقد انشأ الخليفة المنصور فى سنة ١٤٥هـ (حوالى السنة الستين من القرن الثامن الميلادى) عاصمة جديدة له على شاطئ دجلة الغربى. وكان هناك من قبل دير للنصارى وقرية تدعى بغداد؛ فسميت المدينة الجديدة بهذا الاسم التاريخى. ولم يَرُجِ اسم مدينة السلام الذى أسماها به مؤسسها الجديد. ولكن الخلفاء استعملوا فى مسكوكاتهم هذا الاسم (ولا يُذكر اسم بغداد فى المسكوكات إلا بعد استيلاء المغول عليها ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م). ولقد حُطت مدينة المنصور التى دَرَسَتْ منذ زمن بعيد، على شكل خاص بها. ومن أظهر ما يميز بغداد عن المدن الشهيرة الأخرى كونها مخططة تخطيطاً دائرياً . وكانت لأسوارها أبواب أربعة فى جهاتها الأربع. وقد بُنيت بجانب كل باب أبنية كبيرة لاقامة الفرق العسكرية. والأبواب الأربعة تُفضى جميعاً إلى الساحة الواقعة فى المركز. وكان بهذا الميدان القصر الكبير والدواوين . وكان عدد الدواوين فى ذلك العهد سبعة وهى:

(١) ديوان الخاتم وهو ديوان يعمل على تصديق الشئون المعروضة على الحاكم.

(٢) وديوان الشئون السياسية.

(٣) وديوان جيش الخاصة.

(٤) وديوان الجند الذى يدبّر قوة الدولة العسكرية.

(٥) وديوان الخزانة ، وهو يقوم بشئون واردات الدولة.

(٦) والديوان الذى ينظر فى شئون نفقات الدولة يعنى ديوان المالية.

(٧) وديوان ينظر فى الأرزاق والمهمات الخاصة بالدولة.

وكان فى الميدان الفسيح الذى به الدواوين المذكورة مبان أخرى لإدارة الدولة المركزية كخزينة الدولة والمهمات العسكرية ومخازن الأسلحة وغيرها ، وفيه مطعم عام لحرس الحاكم وضباطهم. وكان هذا الميدان المحتوى على جميع المصالح المذكورة محاطاً بسور عظيم ، ولا يُدخل فيه إلا من أبواب خاصة. وليس له صلة بالأحياء الأخرى. وأما الأسواق فكانت خارج المدينة. وكانت عاصمة المنصور هذه أكبر من مدينة دمشق على كل حال ، ومع ذلك لا يمكن مقارنتها بمراكز الدول فى هذه الأيام. وكان نصف قطر الدائرة التى تشغلها هذه المدينة أقل من كيلين<sup>(١)</sup>.

إن قصة إنشاء مدينة بغداد تدل على ما حدث بعد النبى والخلفاء الأربعة من التغيير الخطير فى حياة الملوك فى العالم الإسلامى ، واستمر هذا التغيير فى عهد الخلفاء من بعد؛ فإن زيادة سيطرة العمال وزيادة سلطان الوزير وهو رئيس الدواوين ، كل هذا حدث فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى).

وفى هذا العهد نفسه أحاط الخلفاء أنفسهم بفرق من الجنود المكوّنة من الأرستقراطية الإيرانية والأتراك المملوكين . وكان هناك عامل كبير غير الوزير وقائد الجيش ، يدعى قاضى القضاة ، يتولى رئاسة الأمور القضائية. وكان العمال فى زمن المنصور ، حتى أصحاب المناصب العالية. يتقاضون رواتب أقل من رواتب العمال فى عهد الدولة الأموية (٣٠٠ درهم شهرياً يعنى سبع جنيهات ونصف الجنيه الإنجليزى) . وارتفعت الرواتب فى زمن الخليفة المأمون فكان قاضى مصر فى أيام المأمون يتقاضى راتباً قدره أربعة آلاف درهم شهرياً (٨٠ جنيهاً إنجليزياً) . وفى رواية أخرى أعلى من ذلك ، أى سبع دنانير يومياً (ثلاث جنيهات ونصف الجنيه الإنجليزى) . وكان راتب الوزير فى بغداد فى القرن الرابع

(١) الكيل كالميل تعريب كيلو متر.

الهجرى (العاشر الميلادى) يبلغ سبعة آلاف دينار شهريا (٣٥٠٠ جنيه إنجليزى) . وقاضى القضاة خمسمائة دينار (٢٥٠٠ جنيهها إنجليزيا) . وفى الجملة، فإن رواتب العمال فى القرن الرابع وهو عهد تناقص بلاد الخلافة، أعلى مما كانت فى أيام هارون الرشيد بكثير.

وكل هذا يدل على أن الحكام فى الشرق، لم يؤثروا فى حياة بلادهم تأثيراً كبيراً، كما يُظن؛ فإن الذين لا يعرفون الشرق معرفة كافية يتذكرون هارون الرشيد وقصره إذا سمعوا كلمة بغداد. فى حين أن بغداد هارون الرشيد كانت مدينة صغيرة بالقياس إلى بغداد خلفاء القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) الذين فقدوا سلطانهم.

\* \* \*

ومن الخطأ أيضاً الظن بأن دخول علم اليونان وفلسفتهم إلى العرب كان بتأثير الأوامر التى صدرت فى أيام المنصور والمأمون بالبحث والحصول على مخطوطات وترجمتها إلى العربية. فلا شك فى وجود علاقة بين العلم فى العهد الإسلامى والعلم اليونانى الذى كان منتشرًا فى إيران قبل العهد الإسلامى، ولو أن هذه المسألة لم تُدرس بعد درسًا وافياً.

إننا نجد حتى فى قصور المنصور والمأمون علماء خرجوا من إيران (وكان هناك بعض اليهود أيضا) . ولم تُترجم الكتب العلمية إلى العربية من اللغة السريانية فقط، بل تُرجمت إليها من الفهلوية أيضاً، أى من فارسية الدولة الساسانية. وكانت جداول الهيئة تسمى الـ «زيج»، وهو اصطلاح فارسى. ولا يعرف العرب شعراء اليونان وعلماءهم ومؤرخيهم لأنهم عرفوا علم اليونان وفلسفتهم على أيدى الوسطاء بمشقة؛ فلذا لم يكن لهم تصور واضح فيها يخص تاريخ علم اليونان وفلسفتهم؛ فتاريخ اليونان يبدو عندهم بفيلپوس ملك مقدونيا (فيليب المقدونى) . ومعلوماتهم فيما يختص بحياة فلاسفة اليونان وعلمائهم سطحية؛ فيزعم المتخصصون منهم أن سقراط قتل بأمر ملك اليونان. ويعدُّون بعض علماء اليونان إيرانيين لأن مؤلفاتهم المعروفة لديهم مكتوبة بالفهلوية.

وقد أثر فى إيران، سواء فى عهد الساسانيين أو فى العهد الإسلامى، علم الهند زيادة على تأثير علم اليونان. وحدث هذا التأثير بواسطة اليونان، كما يُظن حدوث بعضه مباشرة



أيضاً. وبدأ تأثير اليونان في علم الفلك خاصة. وأما تأثير الهند، ففي العلوم التي نشأت فيها كالحساب والجبر. إن الأرقام التي اشتهرت في أوربا باسم الأرقام العربية والتي انتقلت من الهند إلى الغرب بطريقتين، طريق إيران وطريق مصر، اخترعت في الهند؛ فإذا طرحنا جانباً خدمت ديوفانت Diophante الرياضى انذى عاش في الإسكندرية في القرن الرابع الميلادى، فإن علم الجبر الذى لم يكن معلوماً لليونان علماً تاماً، كان قد ازدهر في الهند إلى حد كبير. وقد تعرف الأوربيون بهذا العلم بوساطة العرب واتخذوا كلمة الجبر العربية اسماً له. وقد أثر في اليونان من العلوم الهندية علم الطب تأثيراً كبيراً. ويُستدل على ذلك بما استعمله ديوسقوروس الطبيب الذى عاش في الإسكندرية قبل الميلاد بقرن من المصطلحات الهندية. ومن جهة أخرى كان الهنود أنفسهم يعتمدون على أطباء بكتريا (بلخ)؛ فإن الجراحة التي فقدت مكانتها في الهند سريعاً، يُظن أنها بقيت تحت التأثير اليونانى خاصة.

إن حوض دجلة والفرات كان أنشط أماكن الحركة العلمية في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر)؛ فالبصرة وحران وبغداد كانت أهم مراكز العلم والحضارة. ويمكن أن يُذكر هنا الجاحظ المشهور بغزارة علمه (المتوفى سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) والكندى (توفى سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) أول مفكر حر في العرب، من المشاهير الذين ارتبطت أسماؤهم بالبصرة. وتألفت في البصرة في القرن الرابع، جماعة من المفكرين الأحرار باسم «إخوان الصفا». وقد نالت الواحدة والخمسون رسالة. التي أبدعها هذا الاتحاد الشبيه بالجمعية الماسونية، إقبالاً عظيماً بين الناس، وحملها أحد رياضى إسبانيا إلى بلاده في أواخر القرن الرابع الهجرى (نهاية القرن العاشر الميلادى). وفي نهاية القرن الثامن (نهاية القرن الرابع عشر) تُرجمت إلى الفارسية لأحد وزراء تيمور. وكانت بغداد تجذب العلماء من كل أرجاء العالم الإسلامى المختلفة وخاصة من إيران وآسيا الوسطى؛ فكان أبو معشر، منافس الكندى في بغداد، من أصل بلخى. كما أن أبا زيد أحد تلاميذه المشهورين، من بلخ أيضاً. وقد عاش في بغداد من قبل عالم يدعى أبو موسى الخوارزمى، وهو من خوارزم أى من جمهورية خيوة الحالية. وقد خُلف كتباً قيمة في الحساب والجبر، وظل ثقة في أوربا حتى عصر النهضة (واللغاريتم كلمة محرفة عن هذا الاسم). وظهر من فرغانة الواقعة على

الحدود الشرقية للبلاد الإسلامية في تلك الأزمان، الفلكي المشهور أحمد الفرغانى (توفى سنة ٢٤٧هـ - ٨٦١م) ومن التركستان الفيلسوف أبو نصر الفارابى، وهو تركى تلقى العلوم فى بغداد وتوفى بدمشق سنة ٣٣٩هـ (٩٥٠). وللبتانى الرياضى الفلكى مكانة خاصة بين العلماء الذين نشأوا فى حران. اشتغل فى مدينة الرقة الواقعة على شاطئ الفرات وتوفى سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م)؛ والمعلومات الأولى عن المثلثات مرتبطة باسمه فى أوربا. وكانت المثلثات فى بلاد اليونان والهند ملحقة بعلم الفلك، ولم تصر علماً قائماً بذاته حتى فى الشرق إلا فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى).

لم يكن عدم اطلاع العرب على فقه اللغة اليونانية وتاريخ اليونان خالياً من التأثير فى أعمالهم الفلسفية والعلمية؛ فإن علماء العرب لم يقدروا على تمييز الكتب المختلفة المعزوة إلى الفلاسفة المتقدمين، من أصولها. وكانوا يخلطون أحياناً بين الأسماء المشتركة أو المتشابهة من أسماء الفلاسفة كأفلاطون وأفلوطين مع وجود اختلاف فى زمن حياتيهما. ولم يكن يفهم الفرق بين آراء أفلاطون (وازدهارها باسم الأفلاطونية الحديثة) وآراء أرسطو فهماً واضحاً؛ فينسب مثلاً كتاب الإلهيات إلى أرسطو وهو تأليف أفلوطين. الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى. وقد انتقلت أمثال هذه الآراء الخاطئة فى أرسطو من العرب (كان المترجمون يهوداً) إلى أوربا فى القرون الوسطى؛ فكان إلهيات (théologie) العرب وتصوفهم (mystique) تشبه شبيهاً قليلاً جداً فلسفة أرسطو الحقيقية التى وجدها الأوربيون بعد أن تعرفوا بالمصادر اليونانية رأساً. وقد حاول فلاسفة العرب تأليف الفلسفة اليونانية مع الآراء الدينية الإسلامية كما فعل الكاثوليك من قبل؛ فلذا يجعل مؤرخو الفلسفة أحياناً مصطلح «اسكولاستيك» شاملاً للفلسفة العربية أيضاً.

\* \* \*

لقد ساعدت العلاقات الوثيقة بين الممالك الإسلامية المختلفة مساعدة كبيرة على نقل نتائج الحضارة من يد إلى يد؛ فإن تاريخ الطبرى الذى ألف فى بغداد فى القرن الرابع (العاشر الميلادى)، والذى هو أوسع مرجع فى العصور الإسلامية الأولى، انتشر فى القرن نفسه فى العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه. وألف فى قرطبة للحكم الثانى (٣٥٠-

٣٦٥هـ / ٩٦١-٩٧٦م) ملك الأندلس ، كتاب تاريخي مقتبس من هذا الكتاب - مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس - كما كتب في بخارا ملخص للطبرى باللغة الفارسية للأمير منصور الأول الساماني. وكذلك الأدب العربي الجغرافي الذي يجدر بحق أن يسمى أئمن مخلفات الحضارة الإسلامية عن القرنين الرابع والخامس (العاشر والحادي عشر الميلاديين)، يدلنا على وثاقة العلاقات المدنية. وقد ظهرت خرائط بلاد الخلافة والمسائل الحسابية الأولى الخاصة بعلم الهيئة، في بغداد وفي قصر المأمون. إن الكتاب الذي ألفه في القرن الرابع أبو زيد البلخي تلميذ الكندي، طبّقه الإصطخرى أولا ثم طبّقه ابن حوقل أحد تجار إفريقية الشمالية. إننا نجد في الكتب الجغرافية العربية المؤلفة في القرن الرابع، معلومات مفصلة عن البلاد الإسلامية من إسبانيا إلى التركستان والسند. توصف المدن الكبرى التي في تلك البلاد وتحصى الصناعات، كما تذكر معلومات صحيحة واضحة عن محصولات الأرض<sup>(١)</sup>. كانت الدنيا تنقسم، اتباعًا لجغرافى اليونان، إلى سبعة أقاليم من الشمال إلى الجنوب، وتدخل مراكز الحضارة كبغداد وإصفهان في الإقليم الرابع الواقع في الوسط. ومن الطبيعي أن تكون هذه الحضارة لدى أرباب الحضارة الإسلامية آخر مرحلة بلغها الذكاء البشرى (وهكذا كان نظر اليونان القدماء والأوروبيين نحو حضارتهم). ويقع الإقليم الرابع وهو المتوسط، عند علماء المسلمين، على مسافة واحدة من الجهة الحارة والجهة الباردة. ويجمع أصلح الأحوال لحياة الإنسان وأعماله؛ فيجب أن تكون هذه البلاد، بناء على قانون الطبيعة، أكثر أقسام الأرض حضارة.

إن ازدهار الحضارة لم يكن خاليًا من التأثير في درجة رقى الجماعة في العلم؛ فصار العرب يفهمون الفرق بين العالم المتخصص في علم من العلوم والأديب المطلع على النتائج الأخيرة للعلوم. ونبغ مؤلفون نشروا نتائج أبحاثهم العلمية رويدًا رويدًا ، كما نبغ في الأدب شعراء مفكرون إلى جانب أساتذة الأدب المتقدمين في ساحة الأسلوب القديم. إلا أن الجمال الخارجى الذى يمتاز به الأدب العربى ظل دائمًا متفوقًا على الأدب الفارسى الذى يفضل

(١) ومنها القطن، حمله العرب إلى صقلية وإسبانيا من بلاد أوربا. ولا يزال القطن يذكر في اللغات الأوربية

الفكر. وفي الجملة لم يؤثر الأدب العربي في الأثوام الأخرى ما أثر الأدب الفارسي فيها فيما بعد.

بدأ تقدم المسلمين في الحضارة في نظم الدولة كما بدأ في إدارة الحروب وأوقات السلم. وقد روى أنه كان في الجيش البوزنطى معلم عربى فى أواخر القرن الثانى (بداية القرن التاسع الميلادى) والتحق بالبلغار الذين كانوا لا يزالون وثنيين (شامانيين)<sup>(١)</sup>، لعدم وفاء البوزنطيين له بما وعدوه من المال، وسبب انتصارهم على البوزنطيين للمرة الأولى (سنة ٨١١م). وفى نفس هذا القرن يُقر حُجاج نصارى أوربا الغربية الذاهبين إلى بيت المقدس بأن حياتهم وأموالهم فى البلاد الإسلامية كانت فى مأمن أكثر منها فى بلادهم. ومهما كان من تقدم العلم فإن هذا التقدم لم يؤثر إلا تأثيراً ضئيلاً فى لين الطباع وتغيير الحالات الاجتماعية وإدارة الدولة. وكان الفلاسفة عرفوا نظريات أفلاطون وأرسطو السياسية. وصنف منهم الفارابى كتاباً فى السياسة، ولكن هذا الكتاب يصور المدينة الفاضلة بعيداً عن الحياة الحقيقية. ويكفى ذكر هذه العبارة للاستدلال على رأى الفارابى فى إدارة الدولة وهى : «إن وجد مثل هذا فى المدينة الفاضلة، ثم حصلت فيه بعد أن يكبر ، تلك الشرائط الست المذكورة قبل أو الخمس منها دون الأنداد من جهة القوة المتخيلة، كان هو الرئيس... فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط ولكن وجد إثنان أحدهما حكيم، والثانى فيه الشرائط الباقية، كانا هما رئيسين فى هذه المدينة. فإذا تفرقت هذه فى جماعة، وكانت الحكمة فى واحد، والثانى فى واحد، والثالث فى واحد، والرابع فى واحد، والخامس فى واحد، والسادس فى واحد، وكانوا متلائمين ، كانوا هم الرؤساء الأفاضل»<sup>(٢)</sup>.

وكانت العقوبات الشديدة تُوقع على الناس فى ميادين المدن المتحضرة كما كانت قبلاً.

(١) الشامانية دين وثنى منتشر فى سيبيريا وبلاد المغول الغربية ، بين شعوب جبال آلتاي خاصة ، كأستياك والتونغوس والصامويد، ويسمى رجاله «الشامان» . وأساس هذا الدين عبادة الطبيعة والأرواح المدبرة لها . ويقوم الشامان الطقوس الدينية بالرقص والغناء والقيام بحركات غريبة، وقد لبسوا أثواباً مضحكة ووضعوا على رؤوسهم القرون.

(٢) آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى، نشره فرج الله زكى الكردى.

والأفكار العامة رضيت بهذا كما كانت الحال فى أوربا الغربية حتى أوائل القرن التاسع عشر. ولم يكن سكان المدن المشاغبون ينالون ثقة الملوك كثيراً. وقد أقام هارون الرشيد فى بغداد قليلاً جداً بالرغم مما فى روايات قصص ألف ليلة وليلة. وقد أنشأ ابنه المعتصم (٢١٨-٢٢٨ هـ / ٨٣٣-٨٤٢ م) والخلفاء الذين جاءوا بعده عاصمة جديدة للحكومة على شاطئ دجلة باسم سامراً على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد. وكان فى هذه المدينة دير للنصارى أخذ منهم لبناء المدينة مكانه. ومما يدل على بلوغ سامراً مكانة مدينة عظيمة فى مدة وجيزة، امتداد طولها على ساحل دجلة نحو خمسة عشر كيلاً وإن لم يمتد عرضها كثيراً. وأنشئت مبان كثيرة فى عهد المعتصم وخلفه الواثق (٢٢٨-٢٣٢ هـ / ٨٤٢-٨٤٧ م). ولا تزال أطلال قصر المعتصم وجامع المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ / ٨٤٧-٨٦١ م) الكبير قائمة إلى الآن. وبنى فى سامراً ضريح للمرة الأولى. وكان الخلفاء إلى ذلك الوقت يُدفنون حيث يموتون بلا تكلف اقتداءً بالرسول (صلى الله عليه وسلم). ومنذ هذا الوقت ابتداءً الاهتمام الكثير بالمكان الذى يموت فيه الخليفة أو يدفن؛ فنقل المعتصم (٢٥٦-٢٧٩ هـ / ٨٧٠-٨٩٢ م) وهو الذى نقل عاصمة ملكه إلى بغداد فى أخريات أيامه، إلى سامراً ودفن بها. ولم تستطع سامراً استعادة مكانتها السابقة بعد القرن الثالث، ولكن أطلال المدينة التى بناها المعتصم لا تزال موجودة إلى اليوم، بينما درست آثار مدينة المنصور. وأخذ الخلفاء فى القرن الرابع يقيمون فى بغداد مرة أخرى. وكانت بغداد فى هذا العصر مدينة كبيرة تشغل على ساحل الدجلة الأيسر مسافة قدرها ٤٣٧٥ فداناً (بالروسية ديستينة، تساوى ٢٤٠٠ قسبة مربعة)، وعلى ساحلها الأيمن ٢٩١٦ فداناً. وكانت قصور الخلفاء وثكنات الجيش ثلث المسافة الواقعة على الساحل الشرقى. وكان القصر حرماً ممنوع الدخول بالرغم من وجود الجامع الكبير فيه وهو مكان مباح للجميع. وكان فى بغداد أحد عشر جامعاً كبيراً منها تسعة فى الجهة الغربية وثلاثة فى الجهة الشرقية. وقد كانت القصور التى بسامراً وبغداد نموذجاً لقصور دول كثيرة فى البلاد الممتدة من بخارى إلى قرطبة حتى بعد أن تفصلت حدود الخلافة.

وكانت ضرائب الأتبان أساس دخل الخلافة مع ازدهار حياة المدن، لأن الشريعة الإسلامية والأفكار العامة تعارض أخذ الضرائب عن التجارة والصناعة<sup>(١)</sup>، ورغم ذلك كانت هذه الضرائب تؤخذ من كل الجهات. وكلمة تاريف *tarif* المستعملة في اللغات الأوربية، ومنها اللغة الروسية، محرفة من كلمة «تعريف» العربية، وهي تدل على تأثير العالم الإسلامى فى أوربا من هذه الناحية. ولم تهتم الدولة بتطبيق نظام واحد فى جميع البلاد مطابق لما تطلبه الشريعة مطابقة تامة؛ فظلت مصر فى العهد الإسلامى كما كانت من قبل. وكل الفرق بينها وبين غيرها أن الأرض كانت فيها ملكا للدولة. وأما العبودية المرتبطة بالأرض (القن) فلعلها لم توجد فى مملكة من الممالك الإسلامية؛ فإنه لم يكن أحد يمنع المزارعين من ترك أراضيهم، كما أن أصحاب الأتبان كانوا يستطيعون أن يأخذوا أتبانهم من مزارع ليأجرواها مزارعًا آخر يدفع أجرًا أكثر. ولكن نظام «إقطاع الأرض مكافأة أو هبة» قد تزايد فى البلاد الإسلامية وانتشر كثيرًا. إلا أنها لم تكن تقطع هى والذين يعيشون عليها كما كان فى أوربا فى القرون الوسطى، وفى روسيا فى القرن التاسع عشر، بل تقطع وحدها.

وأما فى إيران وفى تركستان فقد أبطل الإسلام، كما سنرى فى الفصل الآتى، نظام الطبقات القديم وامتلاك الأراضى الواسعة. وحدث مثل هذا فى بلاد الأرمن كذلك؛ ولكن النشاط الأدبى لم يغير الحالة الاجتماعية كثيرًا فى الجهات التى استعربت لغة، فى الساحات الممتدة مما بين النهرين حتى إسبانيا. اتسعت المدن ولكن لم يزد عددها كثيرًا. وبقيت علاقات المزارعين بالدولة كما كانت سابقًا، وكان ارتباطهم بأمرء الاقطاعات فى عهد الإسلام كما كان قبله. إلا أن ملك الأراضى الخاصة لم يكن ذات خطر كبير كما كان فى إيران قبل الإسلام. ويحتمل أن يكون لهذه الحالة أثر كبير كما كان فى إيران قبل الإسلام. ويحتمل أن يكون لهذه الحالة أثر فى كون الأمة العربية وهبت للحضارة شيئًا قليلًا، مع أن البلاد العربية فى العالم الإسلامى تعرضت لهجوم البرابرة وتخريبهم أقل من تعرض البلاد الإيرانية.

(١) تفرض الشريعة زكاة على رموس المال، وعروض التجارة وتعشّر سلع التجار الذين يدخلون البلاد الإسلامية.

ومنذ العقد الرابع من القرن الرابع (حوالي السنة الأربعين من القرن العاشر الميلادي) تقلصت حدود حكم الخلفاء العباسيين<sup>(١)</sup>، وبدأ عهد اضطراب في إيران وبغداد اللتين كانتا تحت حكم الأسر الإيرانية أولاً ثم صارتا إلى الأسر التركية. ولعل تقهقر بغداد لم يكن قبل القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي). ولكن المدينة صغرت في القرن السابع إلى حد كبير، حتى قيل في الكلام على أحد أحيائها القديمة بأنه «على مسيرة ميلين من المدينة». ومن جهة أخرى كان عهد ازدهار خلافة الأمويين في الأندلس والفاطميين في مصر في هذه الأزمان. وقد أخذت القاهرة تكسف بغداد منذ أواسط القرن الرابع<sup>(٢)</sup> (أواسط القرن العاشر الميلادي)، والقاهرة اسم لمدينة جديدة بناها الفاطميون على مسافة بضعة أكبال شمالي مدينة الفسطاط القديمة، وكانت أصغر منها. وكانت قاهرة الفاطميين، حتى بعد اتساعها في القرن الخامس تشغل نحو كيل مربع من الأرض. وظل بين المدينتين برية مدة طويلة. ومع هذا كانت الفسطاط والقاهرة تعدان مدينة واحدة. وقد انبهر الرحالون المعاصرون بما شاهدوا في قصور الفاطميين من عظمة، وفي عاصمتهم ودولتهم من رقي، وفي ملوكهم ووزرائهم من حماية للعلوم والفنون ومن غنى مكاتباتهم. ورغم كل هذا لم تستطع القاهرة أن تؤثر تأثيراً كبيراً في ازدهار الحضارة الإسلامية.

وكان الفاطميون الذين يدعون أنهم من سلالة فاطمة ابنة الرسول، يعملون على تقوية مذهب الشيعة ونشر نفوذهم المنافس لخلفاء بغداد حتى خارج حدود بلادهم. ويقوم دعواتهم بنشر مذهب الإسماعيلية، وهو شعبة من مذهب الشيعة. وهذا المذهب يجعل إسماعيل المولود ببغداد أيام الخلفاء العباسيين الأولى، خلفاً شرعياً للرسول أي إماماً. ولكن الشيعة والإسماعيلية عاشتا في إيران لا في بلاد الفاطميين. ولم تنتج الدعاية الشيعة نتيجة كبيرة في مصر؛ فلذا لم تكد الدولة الفاطمية تفقد الحكم حتى أعيدت السنية بدون عناء. وأما في سوريا التي تعرضت للدعايات الشيعة من الإيرانيين أيضاً، وهي في سلطان الفاطميين، فقد حاول الشعب مقاومة إعادة السنية.

(١) استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ.

(٢) القاهرة أسست في النصف الثاني من القرن الرابع.

لم تنتج أفريقية الشمالية والأندلس شيئاً في العلوم الدينية (في العقائد والفقهاء) ، ولم يقبل سكان البلاد المذكورة ، الأصول المتبعة في الشرق الأدنى رويداً رويداً إلا بعد كراحتهم إياها زماناً طويلاً ، وقد انتصر المذهب المالكي في أفريقية الشمالية وهو لم يقدر على الاستقرار في البلاد الأخرى كثيراً. ويجعل بعض العلماء هذا الأمر سبباً لتأخر هذا الركن من البلاد الإسلامية حضارة.

وأنشئ في عهد الدولة الفاطمية مرصد في القاهرة ونُظمت جداول الهيئة. ولكن البلد الذي عمل لرقى علم الهيئة رقيًا حقيقيًا هو إيران.

\* \* \*

إن مصر وسوريا سلمتا من هجمات المغول في القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) بانتصار سلاطين مصر عليهم<sup>(١)</sup> ، ولكن بالرغم من هذا ظلت إيران وهي التي أخرجها المغول كما سنراه فيما بعد ، مركزاً للحياة الحضارية، بل ظلت مؤثرة في مصر. وفي هذا العهد استعملت المصطلحات الفارسية في أعمال إدارة الدولة بمصر بدل المصطلحات العربية. والزمن الذي بين القرن السابع والتاسع (الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين) عهد إصلاح قوى في مصر. ولكن يرى المتخصصون أن تأثير فن العمارة الإيراني في مصر كان أكثر من تأثير فن العمارة المصري في إيران.

كانت مصر في العهد الإسلامي كما كانت في العهود السابقة، متفوقة على الممالك الشرقية الأخرى من جهة عدد المنتجات الأدبية ؛ ففي مصر يجد المتخصصون، فيما يجدون من الكتب التاريخية والجغرافية المؤلفة في مصر، والوثائق القديمة عن العصور الإسلامية الأولى التي ظلت محفوظة بفضل جفاف جوها - يجدون مواد غنية لا يمكن أن يقارن بها ما يوجد في الممالك الإسلامية الأخرى. وأما من حيث التأثير في الممالك الأخرى فكانت القاهرة أقل تأثيراً من بغداد وإيران، كما أن مصر القديمة كانت أقل تأثيراً من بابل.

(١) موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ وما تلاها من وقعات .



وكانت هذه الحال عينها فى سوريا ؛ فقد ساد تيار الجمع فى العلم، والتقليد فى الأدب. وازدهر الشعر فيها كثيراً فى قصور آل حمدان فى القرن الرابع. وأما بعد القرن الرابع فلم ينبغ إلا شاعر واحد مبتكر وهو المفكر المتشائم أبو العلاء المعرى (فى القرن الحادى عشر الميلادى)<sup>(١)</sup>.

إن بعض فروع العلوم والشعر العربى قد ختم عهده فى أفريقية الشمالية وخاصة فى الأندلس فى النصف الثانى من القرون الوسطى، ابتداء من القرن السادس (الثانى عشر الميلادى). ولكن هؤلاء العلماء والأدباء أيضاً أنتجوا قليلاً جداً من الكتب المبتكرة، وأثروا فى حياة إخوانهم الحضارية تأثيراً ضئيلاً. وأدام الفيلسوف ابن رشد فى إسبانيا فى القرن السادس مجهود الفلاسفة فى عهد بغداد. والفرق بينه وبينهم أنه حاول تجديد تعاليم أرسطو فى صورة واضحة، إلا أنه لم يقدر على تطهيرها من الأفلاطونية الحديثة تطهيراً تاماً. لقد وجدت تعاليم ابن رشد فى أوروبا مرادين من الكاثوليكين أكثر من المسلمين. وكان أكثر انتشار الحضارة الإسلامية فى صقلية فى عهد الحكم المسيحى فيها. لقد صنعت لجنة مؤلفة برئاسة الادريسى العربى، كرة كبيرة مجسمة من فضة، وألفت كتاباً ضخماً فى الجغرافية لروجر Roger ملك النورمان فى صقلية عام ١١٥٤م، إلا أن المعلومات الخاصة بالممالك الأسيوية فى هذا الكتاب مأخوذة من جغرافىي القرن الرابع.

كانت الدولة فى كثير من الممالك العربية وخاصة فى مصر، تكفل بأموالها العلماء. ومع ذلك تبدو قيمة خدمات العلماء أقل من قيمة خدمات العمال. وكان المال المبذول فى العلم جزءاً صغيراً من نفقات الدولة العامة. كانت البلاغة وحدها تُقدّر فى العالم العربى بقيمة عالية، كما كانت فى الامبراطورية الرومانية القديمة. يقول ابن عتاب الذى عاش فى نهاية القرن السادس (نهاية القرن الثانى عشر الميلادى) : «يمكن الحصول على مدرس يجيد علوم الصرف والنحو والعروض والحساب والقرآن والأدب بستين درهما شهرياً (جنيه إنجليزى)، بينما المدرس الذى يجيد القول فوق العلوم المذكورة لا يرضى بمائة درهم». وكانت ميزانية دار الحكمة التى أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢١م) فى

(١) أبو العلاء ولد سنة ٣٦٣ وتوفى سنة ٤٤٩هـ.

مصر مائتين وسبعة وخمسين ديناراً (١٢٨ ونصف جنيه إنجليزي) . ينفق منها تسعون ديناراً للورق الذي يُستعمل لنسخ الكتب ، وستون ديناراً مرتبات الرئيس والعمال.

إن المقدمة المشهورة التي وضعها لكتابه في التاريخ العام، ابن خلدون الذي قام بأعمال الدولة في أفريقية الشمالية ومصر في أواخر القرن الثامن (أواخر الرابع عشر الميلادي) ، لهو أول كتاب من نوعه في الأدب العربي وتجربة وحيدة لتخليص التاريخ من القصص، وجعل التحقيق مسيطراً عليه، وللبحث في قوانين التاريخ. ويسمى ابن خلدون التاريخ علماً جديداً بناء على إدراكه الشخصي. وتاريخه بعيد عن تأثير مؤرخي اليونان الاستنباطيين pragmatique ؛ فمؤرخ العرب إذا أخصب من مؤرخي اليونان علماً وتجربة؛ فقد اتخذ ابن خلدون تطور الحالات الاقتصادية والانتقال من البداوة إلى حالة الاستقرار ، ومن الحياة القروية إلى حياة المدن أساساً لنظريته ، بدل تغير النظم السياسية المتخذة أساساً لدى مؤرخي اليونان. بتأثير من العلماء وأي الكتب نشأت نظرية ابن خلدون؟ هذا بحث لا يزال مجهولاً إلى اليوم. ولم يستطع ابن خلدون تطبيق نظريته على الأحداث التاريخية كما حدث لكثير من أصحاب النظريات في الأزمان القديمة والحديثة؛ فمقدمة ابن خلدون الجليلة كمقدمة ديودورس تشبه جداراً مزخرفاً لواجهة جميلة؛ فإذا أخرجنا المقدمة بقي كتابه مجموعة من الحوادث ؛ فهو كجميع جامعي القرون الوسطى، ينقل روايات من سبقه من المؤرخين بدون تغيير في معظم الأوقات. ولم تؤثر نظرية ابن خلدون في غيره من مؤلفي العرب. وما هو جدير بالملاحظة أن ابن خلدون وهو عربي يدعى بأن الحضارة الإسلامية «نتيجة مشتركة لجميع العالم الإسلامي» . ويجعل الحضارة الإسلامية، وهو جد محق في هذا ، فوق ما سبقتها من الحضارات . ومع ذلك فقد ذكر أنها تسير نحو الانحطاط وأنها ستضمحل تماماً. وينظر ابن خلدون إلى العرب بأنهم «بدو هادمون للحضارة» . غير أنه يتحدث عن تفوقهم في الشعر. ويرى أن العرب إذا اختاروا مكاناً لإنشاء مدينة راعوا حاجات الحياة البدوية؛ فمن هذا ينشأ اضمحلال المدن التي انشأها العرب<sup>(١)</sup>. ومع أن ابن خلدون لم يكن كثير التفاؤل بمستقبل وطنه الذي سلم في العهد الإسلامي من التعرض

(١) انظر المقدمة في نقد نظرية ابن خلدون. إن العرب في كلام ابن خلدون هم الأعراب غالباً.

لهجمات البرابرة، سوى غارات البدو، فإنه ينظر إلى هجمات الترك والمغول على الممالك الإسلامية نظرة بسيطة وهي « خرابُ بعض المدن وانتقال الحضارة من مكان إلى مكان آخر ». في حين أن الأوربيين يجعلون استيلاء المغول وترك سببًا لسقوط الحضارة الإسلامية.

وبعد مدة من هذا ، في القرن التاسع (الخامس عشر الميلادي) سقطت مدينة غرناطة آخر معقل الحضارة العربية في أسبانيا. وقد ارتقى فن الشعر في هذه الإمارة الصغيرة إلى أعلى الدرجات ، وأبدعت فيها آثار كقصر الحمراء؛ وهذا القصر يشغل مكانة خاصة متميزة بين المخلدات الإسلامية التي وصلت إلينا كقصر مبنى من مواد خفيفة . وإن زخرفة motif هذا البناء الخاصة، بناء على أقوال المتخصصين ، تتصل بتقاليد الفن الإسلامي العام، وبالأخص فن ما بين النهرين. أكثر منها بالتقاليد الإسبانية والافريقية.

وقد ظهر سقوط غرناطة في نظر المعاصرين ضربة أصابت العالم الإسلامي كله . ولم يوجد من ينظر إليه من وجهة القومية العربية. إن الجادث الأخير الذي يمثل القومية العربية مع الخطورة الدينية في تاريخ الإسلام في القرون الوسطى، هو إعادة السلطة الزمنية لخلفاء بغداد. إذ أن أهل بغداد اعتبروا هذا الحادث «نجاة العرب» لا «إعادة سلطة الخلافة» . ولكن الخلفاء لم يجتهدوا في جمع البلاد التي يتكلم أهلها العربية بتوسيع سلطانهم ، وإنما أرادوا أن يعترف السلاطين لهم بحقوقهم السامية باسم الإسلام. وأما فكرة تأسيس دولة عربية كبيرة فقد فقدت قوتها من قبل أن يهدم المغول الوثنيون عاصمة الخلفاء في سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) بزمن طويل . وسقوط بغداد، كان كسقوط نينوى وبابل وروما، لم يحدث تأثيراً كبيراً.

## الفصل الرابع

### الحضارة الإيرانية

#### وتأثيرها فى الممالك الإسلامية الأخرى

بناء على ما رأينا آنفاً كان عظماء رجال الدولة والحضارة الإسلامية فرسًا حتى فى الأيام التى كانت اللغة العربية اللغة الأدبية الوحيدة للمسلمين. ولكن إلى أى مدى يمكن أن تُعد أعمالهم امتداداً للحضارة الساسانية السابقة للإسلام ؟ إن هذه المسألة لم تدرس دراسة كافية. وإذا استثنينا مملكة بابل التى هى إحدى عواصم الساسانيين، والتى يتكلم أكثر سكانها غير اللغة الفارسية، لم يكن لإقليم من أقاليم الساسانيين القديمة تأثير فى رقى المسلمين ديناً واقتصاداً وعلماً كتأثير بلخ التى ظلت مرتبطة بالديانة البوذية حتى قدوم العرب. فمن بلخ نشأ البرامكة ووزراء خلفاء بغداد. وأسماء العلماء المشهورين فى تاريخ العلوم العربية ذات علاقة ببلخ. إن خطورة بلخ وبابل عظيمة فى تاريخ الحضارة الإيرانية، حتى قيل - وينبغى أن يكون هذا قريباً من الحقيقة رغم البعد الجغرافى - « إن لهجة بلخ هى أقرب إلى لهجة عاصمة الساسانيين من اللهجات الأخرى ».

ل يكتف الاستيلاء العربى بإسقاط الدولة الساسانية بل أزال نظام الطبقات والدين اللذين كانا مسيطرين فى إيران قبل الإسلام؛ فلم يبق من المعتنقين للزردشتية القديمة إلا قليل من الأتباع يُسمون « كبر » أو « پارث » وعددهم قليل. على أن الإسلام لم يكن خالياً من التأثير فيهم أيضاً؛ فإن وحدة الإله التى جاء بها الإسلام انتصرت على العقائد الزردشتية القديمة. وزالت عادة « زواج الأب من البنت والأم من الابن والأخ من الأخت » التى تبيحها الزردشتية، ولو أن الإيرانيين وبالأخص الـ « كبر » لم يحجموا مدى القرون الوسطى

عن ادعاء «عدم وجود الزواج من الأقارب في العقائد المجوسية» في إيران، مخالفين بذلك الحقيقة الواقعة. وكثير من الأمور التي ترجع إلى تاريخ إيران قبل الإسلام وُضعت في صور جميلة كهذه ولكنها بعيدة عن الحقيقة. وعظمة قصور الساسانيين ، وشوكة دولتهم، وعقل الملوك والوزراء ، وتدبيرهم ، وحضارة البلاد ، كانت موضع إعجاب الفرس المسلمين وغبطتهم دائماً. وقد لُفّقوا أنواعاً من شجرات النسب الخيالية ليصلوا رجال الإسلام العظام بتاريخ الساسانيين بأى شكل.

يُعد علماء أوروبا النهضة القومية الإيرانية في العصر الإسلامي إحدى نتائج ظهور دول في إيران غير مرتبطة ببغداد . فهم يرون أن الدول الفارسية بل الدول التركية، قد عاونت على ترقية القومية الإيرانية لكي يحول الشعب وجهه عن بغداد. حتى قيل إن السلطان محموداً (٣٨٧-٤٢٢هـ / ٩٩٧-١٠٣٠م) نفسه الذي هو تركي الأصل والذي رعى شعراء إيران ، ومنهم الفردوسي صاحب الشاهنامه ، في قصره بغزنة، كان يعمل بهذه الفكرة نفسها. والحقيقة أن إقامة حياة جديدة في هذه البلاد التي انهار نظامها القديم كانت في ظروف سيئة جداً. وقد رضيت الدهاقنة في العصور الإسلامية الأولى في إيران، كأمرء الاقطاعيات في أوروبا فيما بعد ، بزوال خطورتهم السياسية لقاء ما نالوا من الدولة من المزايا الاقتصادية والاجتماعية. وكانت إيران عهد الساسانيين تبدو دولة عظيمة جدية بأن تُتخذ المثل الأعلى حتى للعرب أنفسهم. فاتخذت تقليد المؤسسات التي كانت في إيران القديمة والاقْتباس منها وسيلة لرفع عظمة الاسلام. وكان وزراء الخلفاء وولاتهم الفُرس يزعمون أنهم مؤمنون صادقون وموالى للخلفاء مخلصون.

ووجدت الشيعة أرضاً ملائمة في الإيرانيين ؛ إلا أن الخلاف المذهبي كان أقوى من القومية هنا أيضاً. وكانت مدينة «قُم» مركزاً للعصبية الشيعية منذ زمن بعيد مع أن أغلب سكانها من العرب. فاتفق الأشراف مع الشعب مؤقتاً لبلوغ غايتهم المنشودة . واجتمع الأرسقراطيون تحت رئاسة أبي مسلم، وهو أحد رؤساء الشيعة، وحاربوا خلفاء الأمويين الأخيرين . ولما بلغوا الغاية تباينت المنافع فقتل أبو مسلم، وقام أنصاره ضد العباسيين . وقد ثابر البرامكة ، وهم ممثلو الطبقة الأرسقراطية ، على العمل لمصلحة الخلفاء العباسيين

إلى أن صاروا ضحية رد الفعل الدينى فى أواخر خلافة هارون الرشيد. والمنازعات التى قامت بين الأمين والمأمون، ابنى هارون الرشيد، تفسر بأنها ثورات ناتجة من رد الفعل نفسه. ورفع المأمون علم الشيعة، إلا أنه ترك اللون الأخضر وهو شعار الشيعة، حين دخوله بغداد ولبس السواد شعار العباسيين. ولم يكن عمل الخليفة هذا بتأثير العرب، بل بتأثير طاهر رأس الامارة الطاهرية الفارسية.

وقام الطاهريون كالمبرامكة بخدمة العرب والإسلام، وعاونوا على الاستيلاء على البلاد الإيرانية الواقعة جنوبى بحر الخرز. وقد وفقت هذه البلاد للمحافظة على استقلالها ونظام حياتها القديمة حتى انهيار الدولة الساسانية، وانتقل الناس هنا أيضاً من الزردشتية إلى الشيعة، ولهذا الحادث علاقة بزوال نظام الإقطاع وملكية الأراضى الواسعة؛ فإن الخلاف على الخلافة وأهل السنة، كان فى الحقيقة نزاعاً يخفى تحته مسألة الأرض. وفى مثل هذه الأحوال يلبجأ الملوك إلى الشعب، كما حدث فى أوربا أيضاً، فيثيرون المزارعين المحرومين من الأرض ضد أصحاب الضياع الواسعة الذين هم «حلفاء العرب».

إن ازدهار حياة المدن وإنشاء مراكز حضارة جديدة زاد الحياة اضطراباً. وكانت إصفهان أشهر مدن إيران الكبرى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)؛ فإن لدينا معلومات واسعة عن هذه المدينة وما جاورها بفضل اثنين من الجغرافيين اللذين نشأ فيها. وكان فى هذا المركز العظيم للحضارة ممثلون لجميع الحرف يتنافسون فيما بينهم للتفوق. وإصفهان وطن أبى الفرج (فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى) مؤلف كتاب الأغانى المشهور بالعصية العربية، ولثمانية<sup>(١)</sup> من المترجمين اللذين نقلوا قصص إيران إلى اللغة العربية. وكان بعض جهات إصفهان يسكنها كلها أنسال الطبقة الأرستقراطية من الدهاقنة اللذين ظلوا، كأبناء الأشراف فى بولنده، يتذكرون انحذارهم من العنصر الأصيل، بعد أن نزلوا إلى درجة المزارعين الصغار، ويحتقرون الطبقات الشعبية الدنيا، ولا يتزوجون

(١) فى الترجمة الأردية : «ولثلاثة من المترجمين الثمانية اللذين اشتهروا بنقل الأساطير الإيرانية إلى العربية» ، وهذا ينطبق على ما ذكره حمزة بن الحسن الأصفهاني فى صفحة ٩ من كتابه تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء، المطبوع فى برلين سنة ١٣٤٠ هـ .

إلا من أنفسهم. على حين كانت جهات أخرى من المنطقة نفسها أكثر سكانها من طبقات العامة التي ظهر فيها حتى في العهد الإسلامي - ولكن باسم آخر - مذهب الشيوعية الذي كان فيها في عصر الساسانيين.

ولم يستطع الأدباء ورجال العلم الاتصال بجهة من الجهتين اتصالاً تاماً. وعلى العموم فإن عوامل مختلفة كعدواة العرب والسنية، والقومية الإيرانية، وحب الناس للشيعة وسائر الروافض - كل هذا كان يجمع الشعب والأمراء الناشئين بين الطبقات الشعبية أو الذين يعطفون عليها، في صعيد واحد. وكانوا من جهة أخرى يشعرون بقرابة كبيرة للذين يمثلون آراء الطبقات الأرستقراطية المحافظة، للمحافظة على الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها وعلى كياناتهم الحضارية. فمن أجل كل الأسباب المذكورة كانت نهضة إيران الحضارية في أحوال مشوشة كثيراً ولم تُدرس إلى الآن دراسة كافية.

ولم يتخذ المسلمون الحروف العربية وحدهم، بل اتخذها الزردشتيون أيضاً؛ فنشأت لغة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية. وأما بقايا الآداب الفهلوية القديمة فقد كثر الغلط في فهمها لأنها فهمت بصعوبات كثيرة وبدراسات العلماء الأوربيين.

انتفع الشعر الفارسي الحديث بالأوزان الفارسية التي كانت قبل الإسلام، إلا أن هذه الأوزان سميت بالأسماء العربية<sup>(١)</sup>، وعُدلت بطريقة ملائمة للقواعد العربية. لقد قدمت للخليفة المأمون حين دخوله مدينة مرو قصيدة فارسية نظمها شاعر يدعى عباس ويقول الشاعر في القصيدة المذكورة أنه « لم ينظم أحد بهذه اللغة قبله»، ولكن لغتها المذلة القريبة من لغة الشعر الأخيرة ومحتوياتها تدعو إلى الشك في نسبة القصيدة إلى ذلك العهد. ومع ذلك يمكن الفرض بأن شاعراً كهذا كان في ذلك العهد حقيقة. إذ أن ابن خرداذبة الذي ألف بالعربية كتاباً في الجغرافية في ذلك العهد، نقل في كتابه شعراً فارسياً

(١) هذا رأى عجيب فنحن لا نعرف شيئاً من الشعر الفارسي القديم، ونعرف الشعر العربي الجاهلي ونعرف الصلات المحكمة المتصلة بينه وبين الشعر العربي الإسلامي. فكيف يقال أن الأوزان العربية المتصلة السند التي نظم عليها الفرس في العصور الإسلامية كانت أوزاناً فارسية قديمة؛ لعل الأوزان الفارسية القديمة أثرت في الأوزان العربية التي استعملها الفرس، ولكن ما الأوزان الفارسية وما تأثيرها؟ لا ندرى.

لرجل يدعى عباس بن طرخان . فمن المحتمل أن يكون هذا الشاعر نفس الشاعر الذي قدّمت قصيدته للمأمون .

وقد أشير في هذا الشعر القديم اللغة الغنى بصيغته النحوية ، إلى وقائع خاصة بسمرقند وشاش (طقشند) غير واضحة وضوحاً كافياً ، وذلك يدل على أن الشاعر من آسيا الوسطى . وفي هذا العهد نفسه كان هناك شاعر آخر يدعى محمد بن البعيث وله قلعتان على شاطئ بحيرة أرمية . وكان هذا الشاعر يكتب أشعاره بالعربية والفارسية . ويروي الطبري الذي ألف تاريخاً باللغة العربية ، أنه كان لهذا الشاعر أشعار فارسية مشهورة في بلده ؛ ولكنها لم تصل إلى زماننا ولم يُعن بها مؤرخو الأدب الفارسي . ومن المعلوم أن هذا الشاعر اشترك في الثورة التي ثارت في آذربيجان ضد العرب المسلمين في عهد المأمون ، وانضم فيها بعد إلى العرب ، ثم انفصل عنهم وثار عليهم .

ويروي أن الطاهريين ( ٢٠٥ - ٢٦٠ هـ / ٨٢١ - ٨٧٣ م ) وهم أول أسرة إسلامية من أصل فارسي ، لم يكونوا ينظرون إلى الأدب الفارسي نظرة حسنة ، ويرون العناية به مخالفة للدين . ولكن ازدياد نشاط المانوية لا في خراسان التابعة لهم مباشرة فحسب ، بل في البلاد الأخرى أيضاً ( كانت السلطة العسكرية في بغداد بيد أحد الطاهريين بعد انتقال الخلفاء إلى سامرا ) ، أدّى إلى ازدهار الحضارة عامّة وازدهار الحضارة الإيرانية خاصة . وفي أيامهم نُقلت عاصمة خراسان من مَرزُ إلى نيسابور التي صارت في مدة وجيزة إحدى مراكز الحضارة . وكانت مدينة بيهق - اسمها - الحالى سبزوار - وهي قصبه ولاية بيهق ، أهم مراكز الدعاية الشيعية . وقد أنجبت هذه المدينة كثيراً من الكتاب والعلماء منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . وفي شمالي نيسابور مدينة طوس وتقع بجوارها مدينة مشهد التي بها قبر على الرضا إمام الشيعة المتوفى سنة ٢٠٣ هـ (٨١٨ م) وقد صارت هذه المدينة قصبه خراسان .

إن الذين عملوا على انتعاش الأدب الإيراني هم الملوك السامانيون ( ٢٦٢ - ٣٦٨ هـ / ٨٧٥ - ٩٩٦ م ) خاصة . وقد انتقل الحكم في خراسان وفي تركستان التي كان قسم منها بيد المسلمين ، من حكم الطاهريين إلى حكمهم . وجذبت عاصمتهم بخارى كثيراً من الشعراء



والعلماء؛ فصارت الدولة السامانية من أعظم الدول نظاماً في القرن الرابع الهجري . نشأ السامانيون في بلخ وكانوا إيرانيين. وكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في أيام أكثر هؤلاء الحكام . ومع ذلك فقد حَمَوْا في قصورهم كتاب اللغة العربية إلى جانب كتاب الفارسية وإذا استثنيت مدة ليست ذات خطر حوالى سنة أربعين من القرن العاشر الميلادى، فمن الممكن أن يقال إن السامانيين كانوا حماة أهل السنة؛ ففي أيامهم ألف كتاب فى العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضية، ثم ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية. وفى زمنهم أيضاً ترجم تفسير الطبرى إلى الفارسية ، كما ألف تفسير آخر بالفارسية ، وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية. وقد ادعى علماء الدين بأن الأنبياء المتقدمين كانوا يتكلمون الفارسية حتى زمن اسماعيل عليه السلام جد العرب.

وكانت هناك رواية منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) تقول أن إبراهيم عليه السلام دعا ملوك إيران إلى اعتناق دينه وهو فى قصورهم. إلا أن شعراء إيران المنشدين فى قصور الملوك السامانيين كانوا يذيعون آراء لا تتفق مع الإسلام. فالشاعر الرودى السمرقندى الذى اشتهر قديماً ثم نُسى قال : « لا معنى لتحويل الوجه إلى القبلة والقلب منجذب إلى القدسية المجوسية. ويجب الإيمان بحب الإله العام لجميع الأديان؛ فإن إلهك يقبل حبك ولكن لا يقبل صلاتك»<sup>(١)</sup>. وقد أظهر هذا الشاعر نفسه بصراحة تامة محبته وإخلاصه للخلفاء الفاطميين الشيعة<sup>(٢)</sup>. وعبر عن السماء والأرض بأنهما أبو الإنسان وأمه . وهو يرمى بذلك إلى الآراء الخاصة بالمجوسية . وقال الرودى عند وفاة أحد معاصريه : «إنه رفع روحه السلمية إلى السماء، ووارى جسده الأسود التراب». وأما الشاعر الدقيقى الذى حاول نظم الأساطير الإيرانية لأول مرة فقد صرّح بعلاقته بالعقيدة الزردشتية قائلاً إنه يفضل الخمر وشفتى حبيبه (ودين زردشت) على كل شئ آخر<sup>(٣)</sup>.

(١) لو دلنا المؤلف على قول الرودى بالفارسية لأمكن أن نقطع برأى فى هذه المسألة ثم من الشعراء الآخرون

غير الرودى.

(٢) مات الرودى قبل استيلاء الفاطميين على مصر بنحو ثلاثين سنة.

(٣) يشير المؤلف إلى هذين البيتين وهما :

دقيقى چار خصلت بركز يده است      بكيلى أزهد خوى وزشتى  
لب ياقنوت رنسك وناله جنسك      مى خون رنك ودين زردهشتى

وفى القرن الرابع الهجرى نفسه، عصر بنى بويه (العاشر الميلادى) ، أخذ المستولون على ساحل بحر الخزر الجنوبي يهاجمون البلاد الإيرانية المتفوقة حضارة ، منتهزين فرصة ضعف الخلافة. وقد جعل بعض القائمين برياسة هذه الحركة إزالة الخلافة وإحياء الدولة الساسانية غاية صريحة له. ومن الدول التى نشأت من جنوب بحر الخزر الدولة البويهية ، وهى التى استولت على بغداد وقضت على سلطان الخليفة الدنيوى. وطبع ملوك هذه الدولة على مسكوكاتهم كلمة «شاهنشاه» ، وهو لقب ملوك إيران قبل الإسلام. ولم تكن الدولة البويهية دولة تديرها يد واحدة، أى أنها لم تكن دولة مركزية تابعة لحاكم واحد. فقد اقتسم أعضاء الأسرة فيما بينهم البلاد التى استولوا عليها. وكان التفوق السياسى ينتقل من شخص إلى شخص . ولم تكن للدولة عاصمة معينة. فالمدينة التى يقيم فيها الأمير الأقوى هى العاصمة. ومهما عمل هذا النظام فى إضعاف الدولة فإنه ساعد على رقى حضارة المدن وازدياد مراكز الحضارة ؛ فكان كل أمير يجمع فى قصره العلماء والشعراء مجتهداً فى ترقية حضارة مدينته. انتقلت الحياة الحضارية رويداً رويداً من مراكز الحضارة القديمة كبغداد والبصرة إلى المدن الإيرانية الجديدة أمثال الرى (بجنوب شرقى طهران) وإصفهان وشيراز، وجمع فيه الأمراء كتباً وأنشأوا مكتبات كبيرة. ونالت العلوم الوضعية أيضاً حماية الأمراء. ويروى أنه كان بشيراز مرصد فى زمن البويهيين ، وقد أمكن بفضل دقة أجهزته أن يتقدم فى بحث المسائل الفلكية بالقياس إلى العهود السابقة للإسلام. وأنشأ أحد الوزراء البويهيين فى بغداد مجلساً للعلماء وخصص اليوم الأول لعلماء الفقه، واليوم الثانى للأدباء، واليوم الثالث للعلماء الكلام، واليوم الرابع للفلاسفة.

والحقيقة أن البويهيين لم يأتوا من جنوبى بحر الخزر بأى تراث أدبى؛ فمن أجل ذلك اندفعوا فى تأثير الأدب العربى اندفاعاً تاماً ، ولم يقدرُوا للأدب الإيرانى قيمة؛ فلم يشتهر

---

= أى «الدقيقى أختار أربعة أشياء من كل الخير والشر فى الدنيا: الشفة فى لون الياقوت، وزمزمة العود والخمر القانية ودين زردهشت»، وقد سقطت كلمة دين زردهشت من أصل الكتاب وعليها يتوقف الاستشهاد . مقدمة الشاهنامه ص ٣٨ .

أحد من شعراء إيران في البلاد التي لهم سلطان عليها. في حين أن الشعر الإيراني ثابر على التقدم في العهد نفسه ، في البلاد التابعة للسامانيين والغزنويين ، حلفائهم في إيران الشرقية.

وأما الفردوسى الذى نشأ فى طوس بخراسان فقد ألف الأساطير الإيرانية ابتداءً من عهد الأساطير إلى العهد الإسلامى، فى قصة منظومة. وهو على رأس شعراء إيران الذين حفظوا شهرتهم إلى اليوم. ذكرنا آنفاً أن هناك شعراء حاولوا أن يصنعوا فى القرن العاشر الميلادى ما صنعه الفردوسى فيما بعد<sup>(١)</sup>؛ فإن بعض المواضيع الأسطورية والآثار الأدبية الخاصة بالعصور السابقة للإسلام، كتبها بالفارسية الحديثة شعراء إيران المتقدمون معتمدين على تراجمها العربية أكثر من أصولها. ولكن شاهنامه الفردوسى بقيت كنزاً قومياً للشعب الإيراني كله. وكانت الشاهنامه كتاباً يقص البطولة؛ فقد رغب فيه الأرمن والكرج والترك من الأتقوام المتأثرة بالحضارة الإيرانية. ولهذا الكتاب مكانة ممتازة فى آداب العالم. إذ أن الأتقوام الأخرى عاشوا عصورهم السياسية بعد أن فقدت أساطيرهم بهجتها بتأثير الكتاب. وأما الإيرانيون ، فقد ثابروا فى عهد الساسانيين وفى العصور الإسلامية الأولى، على الحياة تحت تأثير التقاليد الأسطورية، بالرغم مما بلغ الكتاب من التأثير؛ فمهما تغيرت الحال بازدهار حياة المدن وانقراض طبقة الأشراف فى العهد حتى نهاية القرن التاسع عشر ، دامت الإشادة بالأعمال الباهرة التى قام بها الملوك، على أسلوب الفردوسى. إلا أن هذه الكتب جميعها ضعيفة كتلك الكتب التى أنتجها العهد التقليدى (Classique) المختلق فى أوروبا. والفرق الوحيد هو أن الإيرانيين تابعوا أستاذهم القومى الكبير بينما الأوربيون قلّدوا اليونان.

لم يكن ممكناً فى زمن الفردوسى إدراك ما ينتجه هذا الكتاب من النتائج من الوجهة الأسطورية. وكان خصوم الأساطير هم علماء الدين الذين ينكرون الإشادة بالأبطال المجوسيين بهذه الصورة، ولكنهم لم يكونوا قادرين على محو ما لهم من المكانة والشهرة. غير أنهم لم يتوانوا فى إقامة العراقيل أمام أولئك الشعراء وهم أحياء. قدّم الفردوسى

(١) الفردوسى نظم الشاهنامه فى القرن العاشر الميلادى أيضاً (الرابع الهجرى).

قصته إلى السلطان محمود ولكن القصة كان قد تم نظمها قبل جلوس السلطان محمود على العرش<sup>(١)</sup>. وقد تأثر السلطان بالبيئات الدينية، وهو يعد نفسه حامياً لأهل السنة، فخبب آمال الشاعر فيه . فثأر افردوسى لنفسه من السلطان بقصيدة هجاه بها، ثم اضطر إلى البحث عن ملجأ له فى قصور غيره من الملوك. ولم يجد افردوسى عوناً من البويهيين المحافظين على التقاليد الساسانية. إن الشاعر الذى تأثر بضيق المعيشة نظم قصة يوسف وزليخا مستنبطة من القرآن وهو فى قصر أحد البويهيين. وقد تبرأ الشاعر الشيخ فى مقدمة منظومته هذه من كتابه السابق، وعاب على نفسه إشادته بأبطال المجوسية ويطولتهم المختلفة. ولما عاد إلى وطنه طوس، كان رجال الدولة قد نسوه؛ ولكن علماء الدين لم يعفوا عنه حتى بعد موته، وامتنعوا عن دفنه فى مقابر المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وهكذا ازدهر الأدب الفارسى فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين (العاشر وأوائل الحادى عشر الميلاديين) فى القسم الشرقى من إيران خاصة. إلا أن علماء إيران المؤلفين باللغة العربية وجدوا البيئة الأصحح لهم فى غربى إيران. وكلما توثقت العلاقات بين الأقاليم زاد هذا الاختلاف اضمحلالاً . ولم تكن درجة اكتمال العلم فى ذلك العهد تستدعى التخصص كما فى أوروبا الآن. فكان فى إمكان العلماء ممارسة علوم عديدة موفقين ناجحين فى جميع تلك العلوم بدرجة واحدة، وأن يجدوا فى الوقت نفسه فراغاً للنشاط الأدبى.

ومن أولئك العلماء ذوى النواحي الكثيرة، ابن سينا . ولد فى سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) فى إحدى قرى بخارى؛ وخدم الأمراء البويهيين فى همذان وورصفهان ؛ وكان وزيراً لآخرهم مدة. تلقى القرآن والآداب فى طفولته على أستاذه فى قيرته، ودرس العلوم الرياضية والطبيعية على دعاة الإسماعيلية الذين كانوا يقدمون إلى بخارى فى ذلك العهد. وأتم جميع العلوم ومنها الطب فى الثامنة عشرة من عمره. وكان الطب أسهل العلوم عنده ، وانتفع به فيما بعد كثيراً. واستصعب ابن سينا ما وراء طبيعة أرسطو، ولم يقدر على حل

(١) يرجع إلى مقدمة الشاهنامه العربية للدكتور عبد الوهاب عزام لمعرفة تاريخ نظم الشاهنامه بالتفصيل.

(٢) يرجع فى تحقيق هذه الروايات إلى مقدمة الشاهنامه العربية.

معضلات هذا العلم الكثيرة إلا بعناء كبير، مستعينًا بكتاب للفارابي وجده في السوق مصادفة وابتاعه بثلاثة دراهم. ومهد له علمه بالطب طريقًا إلى قصر أحد ملوك الدولة السامانية، ثم إلى مكتبة القصر الغنية. ولعل أحدًا، غير ابن سينا. لم ينتفع بما في هذه المكتبة. وفي أواخر القرن الرابع غادر ابن سينا بخارى، ويحتمل أن يكون قد غادرها لأن الدولة السامانية قد أخذت تنقرض على أيدي الأتراك. انتقل أولاً إلى خوارزم، ثم انتقل من الأقاليم الواقعة على ساحل بحر الخزر إلى خراسان وإيران الغربية. وإلى علمه بالطب يرجع الفضل في اتصاله بالأمراء البويهيين. وكتابه الطبى المسمى بالقانون أحد مؤلفاته العلمية العظيمة، وقد وضعه مع تلاميذه. وتستعمل كلمة القانون في العالم الإسلامى، فى معنى يخالف معناها فى أوربا، للقانون غير الدينى، ويسمى بهذا المصطلح ، كما كان فى بوزنطة، بعض القواميس العلمية أيضاً لأنه فى نظرهم «مجموع قوانين العلم». ويسمى كتابه الثانى الباحث فى المنطق والحكمة والطبيعيات والرياضيات وعلم الفلك والإلهيات، كتاب الشفاء. وقد ألف بن سينا مع تلاميذه معجمًا لمختلف العلوم باللغة الفارسية لأمير إصفهان<sup>(١)</sup> وأعطى المنطق المنزلة الأولى بين العلوم. ثم شرحت أصول العلويات أى الإلهيات (ميتافيزيقا وتيولوجيا) والسفليات، أى الطبيعيات بالترتيب، ثم بحث فى الحساب والهندسة والهيئة والميكانيكا التى كان مجموعها يدعى فى القرون الوسطى الحكمة الرباعية *quadrivium*. ولابن سينا بين مؤلفاته الكثيرة العدد كتاب منظوم بالعربية فى الطب، ورباعيات صوفية بالفارسية. واشتغل فى أواخر عمره بفقہ اللغة العربية أيضاً. إن هذا النشاط العلمى والأدبى الواسع الخارق للعادة لم يمنع ابن سينا من أن يحيا حياة مضطربة. فتوفى عام ٤٢٨هـ (١٠٣٧م) ولما يبلغ الستين من عمره. ومع أن ابن سينا لم يكن فى شعبة من شعب العلوم صاحب رأى جديد مستقل، فقد وفق لدرس كل علوم عصره دراسة تامة ولتأليفها فى صورة مفهومة واضحة.

فمن أجل ذلك اكتسب شهرة عظيمة فى العالم الإسلامى ثم فى أوربا فيما بعد. وقد اعتمدت الفلسفة التى نهضت فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى)

(١) لعله يقصد الكتاب المسمى دانش نامه علائى .

فى إيران على كتب ابن سينا واستمرت حتى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) وقد اشتهر ابن سينا فى البيئات الدينية أو الشعبية بضروب من السحر، كما كان الدكتور فاوست فى القرون الوسطى.

وأما أبو الريحان البيرونى (٣٦٣-٤٤٠ هـ / ٩٧٣-١٠٤٨ م) الذى عاصر ابن سينا والذى جادله فى بعض المسائل العلمية جدالاً عنيفاً، فعالم يختلف عن هذا الطراز كل الاختلاف . إن هذا العالم المولود بخوارزم، إذا استثنى زمن رحلته إلى جرجان (حرقانية القديمة) الواقعة على الساحل الجنوبى لبحر الخزر، وزمن رحلته إلى الرى، ظل فى وطنه حتى بلغ الأربعين من عمره مستشاراً لأميرها . وأقام بعد ذلك فى قصر السلطان محمود الغزنوى وخلفائه وقام برحلات عديدة إلى الهند . وبناء على قول أحد متخصصى أوربا المعاصرين، أن هذا «المؤلف العديم النظير» ألف كتباً قيمة فى قوانين الهيئة وفى أصول تواريخ chronologie الأقاليم المختلفة ، وألف كتاباً قيماً عن الهند يدل على نظر واسع وحياد علمى تام. وفى كتابه عن الهند معلومات واسعة عن الأديان والعلوم التى بها وقد استقاها البيرونى عن منابعها السنسكريتية الهندية مباشرة<sup>(١)</sup>.

كان للبيرونى علم تام بمدارس بغداد والبصرة العلمية، إلا أن نظرات أولئك العلماء كانت متأخرة بالقياس إليه. لقد وصف الجاحظ وهو أكبر علماء البصرة فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بأنه «ساذج سريع التصديق» . ومع ذلك لم يبدع البيرونى مذهباً جديداً لا فى الرياضة ولا فى الهيئة، بل ظل مؤمناً بالتنجيم مشاركاً معاصريه فى ذلك. ومن كتبه نطلع على وجود «المتحررين من الآراء الشائعة» قبل البيرونى؛ فقد نظم عالم يدعى أبو سعيد السجزي، أسطراباً معتمداً على نظرية حركة الأرض وعدم حركة الأجرام السماوية. ولم يتبع البيرونى فى هذه المسألة رأى العام بل سماها مسألة مشكوكة عسيرة الحل. وقد تعجب أحد علماء العرب فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) من استصعاب

(١) هو كتاب : «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مزدولة» طبع فى ليدن فى سنة ١٨٨٧م باعتناء المستشرق الألمانى إدوارد سخاو.

البيرونى مسألة حركة الأرض، مع أن هذا الرأى جرحه ابن سينا وجرحه من قبله الطبيب الفلكى الرازى (المتوفى سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م).

إن آراء البيرونى فى المعتقدات الدينية الغربية وخاصة فى الأديان الهندية لحرى بعناية قراء اليوم؛ فقد أدرك البيرونى أن المعتقدات الدينية تابعة لأسباب واحدة فى كل مكان . وكان يهتم بالفرق بين دين الخواص ودين العوام فى كل موضع؛ فهو لا يعترض ولا ينقذ مطلقاً حينما يشرح العقائد الدينية، وهو كذلك يحافظ ما أمكن على العبارات التى يستعملها معتنقو كل دين. وإذا قارن ديناً بدين آخر فإنما يقارنهما مقارنة علمية محضة. وفى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أتحنفا اليعقوبى فى تاريخه بمعلومات مفصلة محايدة بالطريقة نفسها عن محتويات الكتب الدينية النصرانية. وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وفى قصر الغزنويين أيضاً ألف بالفارسية كتاب فى الأديان. وقد ذكر البيرونى كتاب أستاذه الإيرانشهرى (ولم تصل إلينا معلومات عن حياة هذا العالم ومؤلفاته) فى النصرانية واليهودية والمناوية. ولكن حينما ذكر بحثه فى أديان الهند قال إنه أخطأ فيها بعض الأخطاء لتصديقه كلام رجال لا يجيدون معرفة أديانهم. إن مؤلفات البيرونى تشغل مكانة ممتازة بين منتجات الأدب الإسلامى المعلومة لنا، من حيث وفرة موادها وما فيها من الاعتناء بتطبيق الأصول العلمية. ومع ذلك أظهر عصبيته الإيرانية حينما ذكر الحضارات السابقة للإسلام وهدم العرب لها؛ البيرونى شيعى فى آرائه الدينية. وهو ككل إيرانى مثقف تثقيفاً عالياً، يظهر محبة نحو المناوية. ولا يميل إلى أى نوع من الإصلاح فى السياسة. وكان «الاتحاد بين الدين والدولة» بتعبير اليوم، مثله الأعلى للنظام السياسى وغاية للرغبات الإنسانية، وكان هذا أمنية الغزنويين. ولعل السبب لعدم انتشار كتب البيرونى كونها مؤلفة بلغة عسيرة جداً. إنها شغلت مكاناً جديراً بها لدى العلماء زمناً طويلاً، ولكنها كانت بالإجمال قليلة التأثير. وقد ترجم يهودى إسبانى يدعى إبراهيم بن عذرا أحد هذه الكتب، وهو جداول الهيثة، إلى اللغة العبرية فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى). وفى الجملة ظلت كتب البيرونى مجهولة عند الأوربيين حتى القرن التاسع عشر. ويقول البيرونى نفسه إنه إنما ألف كتب للعلماء

لا للعوام. وليس نشاط البيروني في ساحات مختلفة كابن سينا . وقد ترجم مع مؤلفاته العلمية بعض القصص الإيرانية إلى اللغة العربية، وكتب أشعاراً عربية ، إلا أنه كان يعد اشتغاله بالأدب تسلية للنفس لا غير .

والخلاصة أن القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) يُعد عصر انقضاء العهد الذهبي للحضارة الإسلامية وبدء دور الانحطاط ؛ إلا أن التقدم في بعض شعب الحياة الحضارية دامت بضع قرون أخرى في إيران على الأقل. وقد انتقلت الحياة في القرن الخامس الهجري بشكل قطعي، من الشهرستانات القديمة إلى الأحياء المنشأة في العهد الإسلامي، وتكونت في كل مكان أصول حياة المدن كما أوضحناها سابقاً. ولكن اتساع المدن اتساعاً أكثر كان في العصور المتأخرة. وكان محيط دائرة مدينة إصفهان، وهي أكبر مدينة في القرن الخامس الهجري، نحو عشرة أكيال ونصف .

قد أخذ ازدهار فن العمارة يبدو شيئاً فشيئاً . وأقدم أثر إيراني إسلامي معروف التاريخ وصل إلينا زماننا هو الضريح المقام على قبر قابوس ابن وشمكير أمير جرجان ، يرجع إلى نهاية القرن الرابع (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) . وأنشئ هذا المبنى الذي أقيم في (٣٩٧-٣٩٨ هـ / ١٠٠٦-١٠٠٧ م) على الطراز الخاص المعروف كثيراً في البلاد الواقعة على ساحل بحر الخزر والقوقاز والظاهر في منارات الكنائس أيضاً (شكل مخروطي ذو أضلاع متعددة) . وقد سُمي هذا الضريح في كتابته العربية قصراً . وسمى الأضرحة الشبيهة به بهذا الاسم نفسه في بعض جهات إيران كإصفهان مثلاً. ويسميه سكان تلك الجهات في أيامنا كنبد (قبة) . ولعل تغيير أسماء هذه الأضرحة ناشئ من بناء الأضرحة في الأزمان الأخيرة ذات قباب . ومن أقدم القباب المبنية على هذا الطراز البناء المقام على قبر السلطان سنجر بمدينة مرو، أنشئ في أواسط القرن السادس (الثاني عشر الميلادي). بقبة واطئة ، ضريح قابوس بناء ارتفاعه مائة وخمسة وسبعون قدماً ، يعتمد على جدران سمك كل واحد منها أربعة أذرع مبنية بالآجر. ولم يكن في العصور المتأخرة إنشاء مبان ذات نقفات بانتظمة إلى هذا الحد. والآجر المستعمل في المباني المتقدمة هو في الجملة أجمل من الآجر المستعمل في المباني المنشأة في العصور المتأخرة وأحسن وأكبر حجماً . إلا أن



استعمال الآجر لم يكن كثيرًا فى تلك الأزمان . وأخذ الناس يتعودون فى العصور الأخيرة، كما فى مدن أوروبا الآن، استخدام المواد الرديئة للتقليل من تكاليف المنشآت.

إن تاريخ فن العمارة الإسلامى فى إيران لم يكتب إلى الآن كتابة جديرة به ، ولا يزال شرحه شرحًا وافيًا فى حاجة إلى أبحاث كثيرة؛ فطراز المساجد فى عصر الدولة البويهية مجهول . يقول ناصر خسرو ، وهو مؤلف إيرانى فى القرن الحادى عشر الميلادى: « كانت فى كل مملكة جوامع شيعية، كل جامع يمتاز عن غيره بجمال » ولكن لم يبين هندسة تلك المباني . وأما تقارب طراز فن العمارة فى البلاد المختلفة - حيث يرى هذا التقارب - فكان بفضل النجاح الذى نالته الدولة التركية السلجوقية التى نشأت من آسيا الوسطى؛ فقد استولى السلاجقة على جميع إيران فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وسيطروا حينًا على جميع البلاد الإسلامية من البحر الأحمر والأبيض المتوسط إلى حدود الصين.

## عصر السلاجقة

كان يُنتظر هجمات من البلاد الواقعة شرقي إيران إلى غربيها ، منذ القرن الثالث الهجرى (بداية القرن العاشر الميلادى) ، وكان البويهيون ، رغم حمايتهم للفلسفة وخدماتهم للحضارة ، يُعدون طلائع برابرة سواحل بحر الخزر ، المخلين بالرفاه والنظام ، على عكس السامانيين ؛ فكان يُتوقع ظهور ملك عام فيلسوف من الشرق ، من خراسان التى كانت فى حكم السامانيين ، ويُرجى إعادته للنظام فى الغرب . إلا أن الآمال المنتظرة لم تتحقق كاملاً ؛ فبدل قدوم ملك عالم إلى الغرب ، جاءت طلائع قوم متأخرين عن مواطنى البويهيين حضارة؛ فإن سلاطين السلاجقة لم يقدرُوا على تعلم القراءة والكتابة حتى بعد حكمهم فى إيران مائة عام. ولما انقرضت دولتهم فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) انتقل الحكم إلى دول معظمها من الترك . ورغم هذه الحالة هيات فتوح السلاجقة ساحات واسعة لا لشعراء خراسان وفقهائها فحسب ، بل للذين حفظوا التقاليد السياسية لعصر الغزنويين . ومنهم الوزير نظام الملك الطوسى الذى كان مدة طويلة (٤٥٧-٤٨٥هـ / ١٠٦٤-١٠٩٢م) أكثر رجال الامبراطورية السلجوقية نفوذاً.

أُتخذت فى عصر السلاجقة وسائل للمحافظة على ترقية حياة المدن ورفع شأن التجارة والصناعة ، وانشئت مبان عظيمة حفظ بعضها إلى اليوم. وتكونت فى إيران الغربية مدن محاطة بأسوار مبنية بالآجر . ووجد شعراء إيران فى قصور السلاجقة والأسر التى تلتهم فى الحكم حماية وتشجيعاً . وقد قُدمت قصة تسمى «ويس ورامين» إلى السلطان السلجوقى الأول فى ٤٤٠هـ (١٠٤٨م) . وهى قصة مترجمة إلى الفارسية الحديثة من اللغة الفهلوية القديمة التى كانت فى ذلك العهد منسية تماماً ، ترجمها فخر الدين أسعد الجرجانى . ويؤخذ من قوله أن الكتب المؤلفة بهذه اللغة ما كان كل واحد يستطيع قراءتها والذين يقرأونها لا يفهمونها . إن اثنين من شعراء إيران ، وهما أنورى شاعر السلطان سنجر ، ونظامى الذى عاش فى كنجه بالقوقاز يمات بها والذى اشتهر بقصصه المنظومة ، يُعدان أكبر شعراء إيران باعتراف الإيرانيين أنفسهم. وأثرت مؤلفات نظامى فى الشعر التركى أيضاً لا فى الشعر الإيرانى وحده.

ضمن السلاجقة تفوق أهل السنة في إيران ولكنهم لم يقدرُوا على إزالة الشيعة منها إزالة تامة؛ ففي القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) كان عهد جدال دينى عنيف فى إيران، ولكن تفصيلاته لم تدرس إلى اليوم دراسة وافية. واتجهت الدعاية الإسماعيلية فى نهاية القرن الخامس الهجرى إلى جهة جديدة؛ فاستولى الإسماعيلية على أماكن كثيرة حصينة فى كل أرجاء إيران، بل فى سورية أيضاً. وهذا يدل على أن هذه الحركة لم تكن حركة قومية محضة. ويجب أن تكون منافع الطبقات ذات شأن خطير فيها. لم يكن الصراع الحالى بين أصحاب الأراضى وبين الذين يعملون فيها كما حدث فى القرن التاسع عشر، بل كان بين أصحاب القلاع المحصنة وبين سكان المدن. وكانت معاقل الإسماعيليين الجهات التى لم تزدهر فيها حياة المدن إلا قليلاً، وخاصة قُهستان (بلاد الجبل) الواقعة بجنوب غربى خراسان التى كان ثلثا قلاع الإسماعيليين بها. ثم المنطقة الجبلية فى شمالى قزوین التى كان يقيم بها رئيس المذهب فى قلعة الموت الحصينة. وقد وقع أشد الصراع فى ولاية فارس التى بها المدن الكبرى والقلاع الحصينة فى أطراف إصفهان. ولم يكن الإسماعيليون يتورعون من القضاء على خصومهم باغتيالهم غير مكتفين بحربهم جهاراً؛ وكانت للمذهب هيئة سرية مكونة من الفدائيين المغالين فى التعصب، يؤمن أفرادها بإمكان قتل من يريدون قتله أيا كان هو.

وكان لتعاطى الحشيش تأثير فى شجاعة هؤلاء المتعصبين. وقد أخذت كلمة أساسين *assasines* الفرنسية من كلمة الحشاشين العربية، أى المتعاطين للحشيش. وتدل هذه الحالة على أن نظام الإسماعيلية ترك تأثيراً شديداً فى الأوربيين فى القرون الوسطى. لم تكن حصون الإسماعيليين لتدبير الإغتيالات السياسية فحسب، بل دُبرت فيها أمور حضارية أيضاً؛ فكانت لمكتبة الموت ومرصدها شهرة واسعة. ونشأ من هذه القلعة عدة من العلماء قاموا بخدمات جليلة فى إيران فى العهد المغولى. ومن هؤلاء العلماء نصير الدين الطوسى صاحب المؤلفات فى الفلسفة والهيئة والرياضة وفى العقائد الشيعية. ورشيد الدين المؤرخ اليهودى الأصل الذى نشأ من مدينة إصفهان.

كان الإسماعيليون قوة سياسية لا يستهان بها وإن لم تكن لهم ساحة معينة مجتمعة

عملوا أولاً مع خلفاء مصر الفاطميين ، ونشروا دعاياتهم بأسمائهم وعلى حسابهم . ولكن ساءت صلتهم بالفاطميين فى نهاية القرن الخامس الهجرى بل حدث فى نهاية القرن السابع تفاهم بينهم وبين الخلفاء العباسيين ، حماة أهل السنة ، أدّى إليه عداوتهم جميعاً لسلطين الترك .

وأما الثورات التى قامت فى مدينة الرّى وإصفهان ونواحيهما قبيل هجوم المغول فى القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) ، فليس بمعلوم إلى اليوم هل كان للدعايات الإسماعيلية أثر فيها أم لا ؛ فقد كان فيها نزاع بين الحنفية والشافعية وهما شعبتان من أهل السنة ، غير المنازعات بين الشيعة وأهل السنة؛ فمع الشيعة أكثر القرويين ، ومع الحنفية أكثر أهل المدن . ولكن الشافعية انتصروا على جميع خصومهم فى الرّأى . ولعل نضالا استمر هنا تحت ستار الدين وهو فى الحقيقة نضال اجتماعى بين القرية والمدينة ، وبين الطبقة الأرستقراطية والطبقة الديمقراطية المقيمة فى المدن .

إذ لزم الحكم فى هذه المسائل ، اعتماداً على التمحيصات العلمية الحالية ، تبين أن قواد الشعب فى حركاته السياسية والحضارية فى ذلك العهد ، كانوا لا يزالون بعيدين عن الآراء السياسية والقومية؛ فإننا نجد مجهودات فردية من مدن وأقاليم مختلفة لتحسين الحياة فيها ، زيادة على الصراع بين الطبقات ، وفى هذا العهد ظهرت مجموعات تاريخية Compilation أكثر بحثها فى مدن وأقاليم مستقلة . وقد ضاقت فكرة إنشاء دولة إسلامية عامة ، بل إنشاء دولة إيرانية رويداً رويداً بسبب تخصص الأقاليم الذى نشاهده بعد انقسام الدولة السلجوقية الكبرى خاصة . وكان رأى «وجوب عدم إخراج الضرائب المحصلة من سكان كل إقليم لتحسين حالتهم المحلية ، أى عدم اجتماع الأقاليم المختلفة تحت حكم دولة واحدة» يُعد من الحقائق التى لا سبيل لردّها . وكان نتيجة هذه الحالة عدم الاعتراف للدول الكبرى بالتفوق على الدول الصغرى ، ولكن جمع السلطان محمد الملقب بخوارزمشاه أى ملك خوارزم ، قسما من آسيا الوسطى وكل إيران تحت حكمه فى أواخر القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) . ويرى ابن الأثير المؤرخ المعاصر أن سهولة استيلاء المغول من هذا السبب؛ فلو كانت هناك دول كبيرة متعددة كما كانت سابقاً لاضطر المغول

إلى أن يهزموا كل دولة منها منفردة . ولكن خوارزمشاه قد قضى على الدول الأخرى، فلم يجد المغول أمامهم عدواً بعد أن هزموا الدولة الخوارزمشاهية.

لم يكن ازدهار حياة المدن خاليًا من التأثير في التجارات الداخلية والخارجية والبرية والبحرية رغماً من اشتداد الانفصال والتفرق السياسيين . وأما التجارة البحرية مع الهند والصين فقد حسنت حالة مدينة هرمز وجزيرة قيس الواقعة عند ملتقى خليج البصرة ببحر الهند. وقد نتج عن العلاقات التجارية بين خوارزم وحوض نهر قولجا أن اعتنق بلغار إيديل الدين الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولعل هذه التجارة زادت نشاطاً في العصور التي تلتها. وكانت صادرات ساحة البلغار والبلاد المجاورة لها في القرن العاشر الميلادي هي الفراء والجلود المصنوعة صناعة دقيقة ، والعسل وشمعه والسلك. وكانت مدينة بلغار الواقعة على شاطئ نهر قولجا بلدة صغيرة بيوتها مبنية بالغاب واللبد وقليلة السكان. ولما قدم المغول صارت مدينة ذات مبان حجرية لا يقل سكانها عن خمسين ألف نسمة، وترقت صناعة الجلود فيها كثيراً. ثم ورثها الروس. وكانت الأحذية البلغارية من أهم صادرات هذه المدينة ولها شهرة واسعة حتى في التركستان . ولا توجد سجلات تاريخية عن تعارف تجارب العرب والإيرانيين مع الروس مباشرة . وقد شرع الروس في مهاجمة البلاد الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهدموا مدينة بردعة الواقعة على حوض نهر «كُر» وهي من المدن الرئيسية بالقوقاز من حيث كثرة السكان. ثم بلغ الروس كذلك مع البلغار لأجل التجارة جهات «خوالم» أو «خوالن: أي حتى بحر خوارزم (بحيرة آرال) ومنه إلى «أرونج» أي «أوركنج» وهي عاصمة خوارزم . وكانت للكتان الروسي شهرة كبيرة في الشرق.

وانتشر الدين الإسلامي في القرن الرابع للهجرة في قبائل الترك الرحل وفي بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة وبدون استخدام أي سلاح؛ فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري مسلمين. وتوغل التجار المسلمون فيما بعد نحو الشرق. وكانت التجارة بين الصين وبلاد المغول بأيديهم في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وقد وُجد المسلمون في جيش جنكيزخان حتى قبل فتوح الشرق.

إلا أن نجاح التجارة الإسلامية هذا لم يُنتج دعاية دينية إسلامية كما حدث في التركستان وسواحل قوجا . وُجد الأدب النصراني والمانوي في اللغة الصينية منذ القرن الثامن الميلادي ولم يكن عدد المسلمين في الصين أقل من عدد النصارى والمانويين ، ومع ذلك لم يظهر الأدب الإسلامي فيها إلا في القرن السابع عشر الميلادي . وأما في بلاد المغول فلم يعتنق منهم قوم الديانة الإسلامية بعد هذا التاريخ أيضاً . في حين أنا نرى منهم من اعتنق المانوية في القرن الثامن الميلادي والنصرانية في القرن الحادي عشر الميلادي . وكان مسلمو إيران أكبر ممثلي التجارة والحضارة للأتراك والمغول؛ فكلمات «سارت ، سارتاق وسارتاول» التي نقلها الترك سابقاً من الهند بمعنى التاجر، صارت اسماً أطلقه الترك والمغول فيما بعد على الشعب الإيراني المستقر . ثم خلقت الأساطير المغولية بطلاً يدعى «سارتاقتاي» يبني الخزانات ويحفر الترع (وكلمة تاي أداة تلحق بآخر أسماء الذكور في اللغة المغولية).

ولعل التجارة مع الممالك غير الإسلامية كانت بطريقة المبادلة ، وكانت المعاملات التجارية مع روسيا الجنوبية تجرى على أساس السكة الفضية حتى بداية القرن الحادي عشر الميلادي . وقد أدخلت في روسيا كمية كبيرة من السكة الفضية التي وردت إلى الممالك الإسلامية . ثم تحول نظام السكة الفضية الذي بقي من عهد الدولة الساسانية إلى نظام السكة الذهبية . وفي نهاية القرن الخامس الهجري (نهاية القرن الحادي عشر الميلادي) أخذ العالم الإسلامي يحس بأزمة السكة الفضية، ثم انتقلت هذه الأزمة رويداً رويداً من الشرق إلى الغرب فضُربت سكك نحاسية بدل الدراهم الفضية . على أن التعامل بالسكك النحاسية لم يتجاوز الأقاليم التي ضربت فيها . ودخل هذا النظام في الدولة العباسية أيضاً في القسم الغربي من آسيا . إلا أن السكة الفضية أعيد ضربها في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . وأما في الشرق، فقد كانت السكك النحاسية مستعملة فيها حتى في عهد قدوم المغول إليها . ولكن لا تدل المراجع التي بأيدينا على ما كان لتغيير نظام السكة من التأثير في حياة الشعوب الاقتصادية وخاصة في التجارة.



## الفصل الخامس

### فتوح المغول وتأثيرها فى الحضارة الإيرانية

كان التجار المسلمون مستشارى جنكيزخان الأول وعاونوه معاونة كبيرة فى محاربة العالم الإسلامى. والسبب الرئيس لحروب جنكيز خان هذه هو السلطان محمد ملك خوارزم (خوارزمشاه). فقد نهب حاكم أوترار (فى التركستان) القريبة من الحدود قافلة قادمة من بلاد المغول، وقتل أربعمئة وخمسين رجلاً من المرافقين لها فى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م). وفى سنتى ٦١٧ و ٦١٨ هـ (١٢٢٠-١٢٢١ م) استولى المغول على جميع التركستان وخوارزم، ولم يكن بد من معاودة الحرب فى الشرق الأدنى مرات عدّة. ولم تقع بغداد فى أيدي المغول إلا فى ٦٥٦ (١٢٥٨ م). وبهذه الصورة تألفت دولة مغولية كبيرة محتوية على إيران وما بين النهرين وآسيا الصغرى، وبقيت التركستان فى سلطان فرع آخر من الدولة الجنكيزية. وقد أُخْرِيت قلاع الإسماعيليين مع دولة السلطان والخليفة، ولم ينشئ المغول قلاعاً جديدة بعدها. وأما الإمارات المحلية التى بإيران الجنوبية فخضعت للمغول باختيارها ولم تتخل عن الحكم إلا فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)، وسلمت ولايتا فارس وكرمان من عادية الجيش المغولى. ودامت الحياة القديمة فى المدن الكبرى وخاصة فى شيراز؛ فلذا اكتسبت فارس خطورة عظيمة لم تنلها من قبل من حيث الحضارة الإيرانية<sup>(١)</sup>.

---

(١) يظهر من كلام الشيخ سعدى الشيرازى فى كتابه البستان إن أمير فارس أبا بكر بن سعد بن زكى صالح المغول على مال فرجعوا عن غزو بلاده فهو يقول للأمير:

سكندر بديوار روئين وسنك بكردازجهان راه ياجوج تنك

ترا سد ياجوج كفر از راست نه روئين چو ديوار اسكندر ست

إن الإسكندر أقام سدًا من الحديد دون ياجوج وماجوج وأنت أقمت سدًا من الذهب فى وجوه الكفار.



وقد حمت الأدب الفارسي الدولة السلغورية التي اجتازت فتوح المغول سليمة، والدولة المظفرية التي حكمت نصف قرن بعد تفرق الدولة المغولية؛ فبأولى الدولتين يرتبط اسم الشيخ سعدى شاعر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)، وبالثنائية اسم حافظ شاعر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ارتباطاً وثيقاً. وقد قرئت كتب هذين الشاعرين اللذين لم يفقدا مكانتهما إلى الآن - وخاصة حافظ - وعُلمت فى جميع البلاد التي كانت تحت تأثير الحضارة الإسلامية<sup>(١)</sup>. وأخرجت شيراز كذلك عالين كبيرين للعالم الإسلامى: أحدهما قطب الدين المتوفى سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) الفلكى العظيم الذى بحث عن طرق حديثة فى ساحة العلم. وثانيهما المهندس المعمارى الكبير قوام الدين المتوفى سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩م). وقد عد بعض العلماء جامع كوهر شاد الذى بناه قوام الدين فى مدينة المشهد أعظم أثر لفن العمارة الإيرانية<sup>(٢)</sup>.

إن الزعم بأن الحياة المدنية «لم تدم إلا فى البلاد التي نجت من هجمات المغول» زعم خاطئ. فُتحت بلاد متحضرة بأيدي قوم لم يتجاوزوا بعد درجة تقديم الإنسان قرباناً. وضُرب أحياناً جميع الناس بالسيوف حين الاستيلاء على المدن، ولم ينج من الموت إلا الصناع الذين يحتاج إليهم الفاتحون على أن يكونوا أسرى؛ فالذين شاهدوا أمثال هذه المشاهد المخيفة، ظنوا بالطبع، أن إصلاح تلك البلاد من جديد يحتاج إلى آلاف السنين. ونظر علماء أوروبا المندفعون فى تيار هذه الآراء إلى الضربة التي أصابت آسيا وشرقى أوروبا من هجمات المغول على أنها أقوى بكثير من الضربة التي أصابت أوروبا الجنوبية من هجرة الهون من قبل، ولا يمكن معالجتها. والحقيقة أن نتيجة استيلاء المغول لم تكن سيئة إلى هذا الحد. وأول أسباب هذا أن الفاتحين لم يستوطنوا هذه البلاد. وقد اصطحب ملوك المغول مع قواتهم العسكرية التي لم تكن كبيرة العدد، مستشارين مدنيين للاستعانة بهم فى الشؤون الإدارية والتعميد؛ فإننا نرى فى تاريخ البلاد التي استولى عليها المغول: فى الصين، وفى البلاد الإسلامية وفى روسيا بعد القرن الثالث عشر الميلادى، استقراراً

(١) لا شك أن كتب الشيخ سعدى ولاسيما كلستان كانت أكثر رواجاً فى دور التعليم من ديوان حافظ.

(٢) فى رحلات عبد الوهاب عزام الأولى كلمة عن هذا الجامع فى الكلام عن مدينة مشهد.

سياسيًا لم يكن يوجد فيها من قبل . ولا شك فى أن ملوك المغول لم يعنوا بالآداب المحلية ، ولم يبالوا بالعلوم الدينية بالطبع قبل اعتناقهم الإسلام . ولكنهم اجتهدوا لإنهاض حياة المدن وترقية الصناعة والتجارة، مراعين فى ذلك منافعهم الخاصة. وقاموا بحماية العلوم ذات الخطورة العملية الخاصة كالطب والرياضية والهيئة. وقد انشأ هولاءكو ، حفيد جنكيزخان وفتح إيران، للعالم الفلكى نصير الدين الطوسى ، مرصدًا فى المراغة بأذربيجان مجهزًا بأدق الأجهزة المعروفة فى زمانه . ومع أن المغول كانوا متوحشين فى حكمهم لم يستلزم عهدهم «الانتقال من التبادل بالنقد إلى التبادل بالسلع، ومن حياة المدينة إلى حياة القرية» كما حدث فى عهد الجرمان فى أوربا. ولم تدم جباية الضرائب عينًا (من الأشياء كالحبوب والأقمشة) مدة طويلة بعد موت جنكيزخان؛ فمنذ عهد حفدته تعود المغول نظام النقد . وبدل نظام السكة الذهبية السكة الفضية؛ فلما تم استقرار السكة الفضية ألغى سك الدراهم النحاسية رويدًا رويدًا. ولم يكتف المغول بإصلاح المدن المخربة فحسب بل أنشأوا مدنًا جديدة (كمدينة السلطانية التى بنيت بين تبريز وطهران) وصارت تبريز وهى عاصمة آذربيجان مدينة كبيرة فى عهد المغول لا تقل عن مدن إيران القديمة اتساعًا وثروة. وأنشئت فى عهد ملوك المغول فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) مبان كبيرة تدل على نهضة فن العمارة الإيرانية من جديد . ومن هذه المباني جامع ألبايتوخان (٧٠٤-٧١٦هـ / ١٣٠٤-١٣١٦م)<sup>(١)</sup> فى مدينة السلطانية، وجامع ابنه أبى سعيد خان (٧١٦-٧٣٦هـ / ١٣١٦-١٣٣٥م) الذى بقصبة ورامين شرقى طهران.

إن الدولة المغولية جمعت البلاد المتحضرة من بلاد الشرق الأدنى والشرق الأقصى تحت سلطان أسرة واحدة وقوم واحد . وساعدت هذه الحال مساعدة عظيمة فى الشئون المدنية، لا فى تبادل التجارة فحسب؛ فتجارة القوافل بين الشرق الأدنى والصين كانت معروفة من قبل، ولكنها ازدهرت فيما بعد ازدهارًا لم يسبق له مثيل قط . وانتفع الأوربيون أيضًا

(١) ألبايتو بن أرغون بن أباقا بن هولاءكوخان من نسل جنكيزخان ، وهو الثامن من ملوك الإيلخانية المتفرعة من الدولة الجنكيزية. وقد تسمى بعد تشرفه بالإسلام بغياث الدين محمد خدابنده.

بطرق القوافل هذه منذ أسرة «پولو»<sup>(١)</sup> من تجار البندقية . وظلت العلاقات وثيقة بين الدولة الإيرانية والدولة الصينية المغولية اللتين كانتا فى إدارة شعبتين منفصلتين من نسل جنكيزخان حتى انقسام الدولة إلى أقسام عديدة . وتقرب ملوك المغول بعد ذلك إلى الدول الأوربية أيضاً للعداوة المشتركة بينهم ضد سلاطين مصر من المماليك . وانتفع تجار أوروبا ومبشروها بالطريق البحرى من الثغور الإيرانية إلى الهند والصين زيادة على طريق القوافل المارة بآسيا الوسطى . وبهذا يُفسر الرقى المدنى البارز عند الأوربيين فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى حد ما . إلا أن التفوق المدنى كان فى تلك الأزمان للعالم الإسلامى وخاصة فى إيران . وإن كان فى تاريخ إيران عهدٌ وقف فيه الشعب الإيرانى فى الصف الأول من حضارة العالم فهو العهد المغولى . مع أن كثيراً من العلماء يذهبون إلى أن المغول لم يعملوا فى إيران غير تخريب الحضارة .

وكما يحتاج الرحالون المسلمون اليوم إلى الاستعانة بعلوم الأوربيين ليعرفوا ما يهتمهم ، كذلك كان رُحَالو أوروبا فى ذلك العهد محتاجين إلى الرُحَالين المسلمين . فقد ذكر ماركو پولو كثيراً من الأسماء الجغرافية كما ينطقها الفرس وهو يصف بلاد الصين التى رآها بعينيه . وظهر علماء الفلك من الصينيين فى إيران فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ولكن خدمات الفلكيين الإيرانيين فى الصين كانت أعظم . وقد كان علم الهيئة فيها تحت تأثير الإيرانيين التام ، واستطاعوا المحافظة على سيطرتهم هذه حتى بعد انقراض الحكم المغولى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ولم يتخلوا عنه إلا فى القرن السابع عشر ، فتركوه مرغمين لليسوعيين الذين قدموا من أوروبا . ثم إن كتب الهيئة الفارسية ترجمت إلى اليونانية فى بوزنطة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أيضاً .

(١) هو ماركو پولو الرحالة الشهير . ولد فى مدينة البندقية سنة ١٢٥٤م ، ورحل مع أبيه نيقولا وعمه ماتيبوس إلى بلاد الصين عن طريق بدخشان وصحراء غربى آسيا الوسطى . واستطاع أن ينال ثقة قبلاقا آن ملك المغول الذى كلفه بالقيام ببعض أعمال فى بلاد الصين . وعاد إلى أوروبا سنة ١٢٩٥م بشروات طائلة وأخبار عجيبة أدهش بها مواطنيه . وترك ماركو پولو كتاباً جليلاً محتوياً على ما شاهده أثناء رحلاته الطويلة . وتوفى بالبندقية سنة

ورأى ملوك المغول فى إيران تأليف كتاب فى التاريخ<sup>(١)</sup> جامع للروايات التاريخية لجميع الأمم التى تدخل فى الامبراطورية المغولية أو التى لها علاقة بالمغول من الصينيين إلى الإفرنج (سكان أوروبا الغربية) . ونُفِّذ بعض هذا العمل . وكُلِّف القيام به رشيد الدين الذى كان يهوديًا وأسلم، وكان يعاونه رجل مغولى عالم بالروايات التاريخية المغولية ، وإثنان من علماء الصين، وراهب بوذى من كشمير وعدة من علماء إيران. وربما كان معهم راهب فرنسى أيضًا. حاول رشيد الدين تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من روايتها بدون تغيير ؛ فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخًا علميًا بالمعنى المفهوم اليوم ، إلا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته . ولم نر اجتمع علماء جميع الأمم المتحضرة فى العالم القديم وجمعهم للروايات التاريخية المتصلة بالتاريخ العام فى كتاب واحد لا قبل ذلك الزمان ولا بعده . وقد كان علماء أوروبا حتى فى القرن التاسع عشر يريدون أن يفهموا من التاريخ العام تاريخ أوروبا الغربية فقط. ومن رواية أحد مساعدى رشيد الدين من كتاب المسلمين يتبين أنه منذ ابتداء القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كان يُنظر إلى تاريخ العرب والفرس كأنه «أحد الأنهر التى تصب فى بحر تاريخ العالم العام».

لم يقتصر تأثير إيران فى ساحات العلم والفن والأدب على البلاد التابعة لها سياسيًا فحسب، بل كانت علاقات وثيقة من قبل بين سواحل نهر إيديل (قولجا) وجيحون (آمودريا)، وبهذه العلاقات يُفسَّر اعتناق بلغار إيديل للدين الإسلامى. مع أن شواطئ هذين النهرين لم تدخل فى حدود دولة واحدة إلا فى زمان المغول (فى حكم جوجى ابن جنكيزخان الأكبر).

---

(١) هو كتاب «جامع التواريخ» لخواجه رشيد الدين فضل الله المقتول سنة ٧١٨ الهجرية، وكان وزيراً للسلطان غياث الدين خدابنده محمد. وهو تاريخ بالفارسية مؤلف من مجلدات عدة. طبع منها المجلد الثانى المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد أوكتاى قا آن حتى تيمورلنك ، بليدن سنة ١٩١١ ضمن مجموعة جب التذكارية بتصحيح المستشرق ادكار بلوشيه؛ وطبعت منه فى باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة بتاريخ هولاكوخان، بتصحيح المستشرق كترمير ؛ ونشر المستشرق الألمانى كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ الملك غازان، فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠. وله نسخة عربية منها صورة فى دار الكتب الملكية المصرية.

ولم تخل هذه الحالة من تأثير في حياة مدينة بلغار الكبرى عاصمة البلغار القدماء ، ومدينة «سراى» التى انشأها المغول. وقد تحقق فى الأزمان الأخيرة وجود أشعار فيهما أيضاً باللغة التركية متأثرة بالشعر الفارسى .

ابتدأ الدين الإسلامى ينتشر بين الشعوب التركية فى التركستان منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وفى القرن الخامس الهجرى ألف الخان كاشغر كتاب «قوتاد غوبيليك»<sup>(١)</sup> وهو أول كتاب إسلامى باللغة التركية . وتذكر فى هذا الكتاب قصص أخلاقية تشرح واجبات العمال والملوك. وتوجد مثل هذه القصص المكتوبة غالباً على صورة نصيحة الأب لأبنائه عند كل الأمم فى الزمان القديم والقرون الوسطى ؛ فمن هذا النوع كتاب «قابوسنامه» الذى كتب باللغة الفارسية فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، ألف فى صورة نصائح من أحد أمراء ساحل بحر الخرز لابنه<sup>(٢)</sup> ، ونال شهرة واسعة وترجم إلى اللغة التركية أيضاً. ولم تفقد هذه الكتب الأخلاقية والنصائح قيمتها عند قرائها إلى اليوم فى إيران وفى كل بلاد ازدهر فيها الأدب قليلاً أو كثيراً. وتذكر فى هذه الكتب، بعد النصائح ، أمثلة مستخرجة من الحياة وأحداث تاريخية . ولكننا لا نجد فى قوتادغو بيليك غير مجازات ساذجة (مثل شاعرنا العدل فى صورة أمير والدولة فى صورة

---

(١) معناه علم السعادة أو علم جدير بالملوك. ألفه يوسف خاص حاجب البلاساغونى باللغة التركية الشرقية سنة ٤٦٢ الهجرية برسم طففاج بغراقراخان ملك كاشغر فى التركستان الشرقية . ومنه نسخة بالخط العربى فى دار الكتب المصرية كانت فريدة حتى ظهرت نسخة أخرى بالحروف العربية، وهى النسخة التى وجدت بفرغانه بالتركستان ونقلت إلى مكتبة لينجراد .

كان أول ظهور هذا الكتاب سنة ١٨٩١م حيث عشر المستشرق الروسى ف . رادلف W.Radloff على نسخة مكتوبة بالحروف التركية الأيغورية بمكتبة فينا ونشرها بالزنكوغراف ثم نشر متن الكتاب مطبوعاً بحروف سبكها خاصة بهذا الكتاب، مع ترجمته الألمانية سنة ١٩٠٠م.

= ثم جمع المجمع اللغوى التركى تلك النسخ الثلاث باستخراج صورها الفوتوغرافية ، ودرسها مع مقارنة بعضها ببعض، وأصلح ما وقع من الأغلط فى ترجمة رادلف، بعد جهد شاق فى نحو ثمانية أعوام ، ثم نشر صور النسخ الثلاثة الزنكوغرافية فى ثلاث مجلدات سنة ١٩٤٢م.

(٢) ألقه كيكائوس بن اسكندر بن قابوس من الدولة الزيارية.

وزير) وضروبًا من نصائح جافة بعيدة عن الحياة. وقد كان تأثير الأدب الإسلامى والأدب الفارسى فى الأتراك عميقًا إلى درجة أن نسى الذين أسلموا منهم ماضيهم بالرغم من وجود كتابة لهم قبل الإسلام.

وتلقى الناس «قوتادغو بيليك» بالقبول رغم كل عيوبه المذكورة. وقد نقشت أبيات منه على زهرية خزفية مصنوعة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وجدت فى مدينة «سرايجك» على مصب نهر أورال . ولكن يبدو أنه لم يقلده أحد . وأخذ دعاة الإسلام منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) يولفون كتبًا دينية منظومة أو منشورة باللغة التركية لتعزيز الدين الإسلامى فى الأتراك ، فأشعار الشيخ أحمد يسوى<sup>(١)</sup> المؤلف على هذا الأسلوب لا تزال تُتخذ أنموذجًا لشعراء العامة إلى هذا اليوم. وأما الطبقة المثقفة فقد اكتفت بالأدب الفارسى الذى نال رعاية الخانات أيضًا زمنًا طويلًا . وأما السلاجقة ، فاتحو إيران وآسيا الصغرى الذين كانوا أقل حضارة من القراخانيين فاتحى التركستان حين دخولهم فى الإسلام ، فقد كان انغماسهم فى الحضارة العربية والفارسية أسهل . وأغلب الظن أنه لم تكن لهم كتابة وتقاليد أدبية.

إن انتصار المغول دعا إلى اعتزاز الأقاليم الرحل بتقاليدهم ونظم حياتهم ولغاتهم . وكان أساس معيشة الرحل واحدًا فى كل البلاد على اختلاف اللغة المغولية عن التركية وكون المغول أقل حضارة من الأتراك. ثم كان المغول الرحل السائرون إلى الغرب أقل من الترك عددًا؛ فمن هنا كان نسيانهم للغتهم فى البلاد التى يكثُر فيها الرحل كتركستان و «آلتون أوردا» واتخاذهم التركية لغة لهم. وأما المغول الذين كانوا فى إيران فقد استطاعوا المحافظة على لغتهم مدة أطول . وقد حاول المغول فيها أن يبدعوا لهم أدبًا باللغة المغولية حتى بعد

---

(١) وليد ببلدة يسى فى التركستان، وتلقى العلوم الدينية والتصوف فى بخارى التى كانت أكبر مركز دينى فيما وراء النهر فى ذلك العهد ؛ ثم عاد إلى بلده يسى وأنشأ طريقته المعروفة بالطريقة اليسوية. وقد انتشرت هذه الطريقة فى البلاد التى يسكنها الأتراك من آسيا الوسطى وشرقى أوربا . وله ديوان باللغة التركية الشرقية يسمى ديوان الحكمة، يجمع آراءه الصوفية، ولا يزال يقرأ بإجلال فى البلاد المذكورة . وتوفى الشيخ أحمد يسوى سنة

اعتناقهم الإسلام ؛ فترجم كتاب كليلة ودمنة، وهو مجموعة قصص هندية، من الفارسية إلى المغولية، ولكن تأثير هذا الأدب فى حياة المغول ولغتهم الأدبية بعد هذا العهد أو عدم تأثيره مسألة لاتزال موضع النظر. وهناك من يظن أن بعض القصص المتعلقة بـ «باغاتير جانغار» (بهادر جهانكير بالفارسية) البطل الأسطورى المعروف اليوم عند المغول والقلموق قد نشأت فى إيران. وقد حافظ فاتحو المغول على لغتهم فى أفغانستان إلى اليوم ، ولكن ليس لهم أدب شعبى .

لم يكن النشاط الذى بذله ملوك المغول لرفع شأن شعبهم فى إيران مفيداً لهم بل أفاد شعور الأتراك القومى؛ فإن الأتراك هم الذين استفادوا من الأوصاف الواضحة التى ذكرها رشيد الدين فى وصفه لحياة الرجل فى كلامه على جنكيزخان وأسلافه والقبائل المغولية والتركية الأخرى ولم ينتفع بها المغول . وقد ترجم هذا القسم إلى التركية مرات عديدة. وترجم أيضاً للقيصر بوريس غودونوف فى روسيا . وتأثير رشيد الدين صاغ الترك الروايات الشعبية الأسطورية الخاصة بجدهم أوغوزخان - جد الغزبة - فى قالب أدبى. وأخذ أحد مؤرخى آسيا الصغرى الذى ألف قصة أوغوزخان فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)، الكلمات الحكيمية التى نسبها رشيد الدين فى كتابه إلى جنكيزخان ووضع أوغوزخان مكان جنكيزخان بدون أى تخرج<sup>(١)</sup>. ولاشك أن للأدب الفارسى تأثيراً فى إفراغ الروايات القومية فى قالب أدبى. وآية ذلك كلمة «أوغوز نامه» ؛ فإن كلمة «نامه» تطلق فى الفارسية على الكتابة والكتاب. و «أوغوز نامه» اسم للمناقب المتعلقة بالأتراك الغز، وكان يقصها شعراء الغز الشعبيون الذين يسمون «أوزان» .

ولاشك فى أنه يمكن أن يقال إن أعمال الحضارة الإسلامية التى بدأها العرب والفرس ، قد أدامها الترك بقواهم الناشئة فآمدوا الحضارة بحياة جديدة. والحق أن الأتراك أبدعوا لهم لغة جديدة أدبية فى التركستان وفى آسيا الصغرى - وإن كانت على غرار غيرهم- ؛ ففى

(١) يقصد بارتولد بهذا كتاب «سلجو قنامه» الذى ألفه يازيجى أوغلى على باللغة التركية فى عصر السلطان مراد الثانى. انظر مقالنا فى الأدب التركى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فى دائرة المعارف الإسلامية..  
محمد فؤاد كوبريلى

آسيا الصغرى أخذت قصص البطل العربى السيد بطلال الذى استشهد فى أيام الأمويين وجعل مقاتلا تركياً . وفى الكتاب المؤلف عن « قورقود » أبى الأتراك وشاعرهم الشعبى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، موضوعات أخذت من غيرهم ثم تُركت بالصورة عينها . وجلال الدين الرومى وهو أحد شعراء الأدب الفارسى الكبار فى القرن السابع ، ومؤسس الطريقة المولوية و «أحد عظماء متصوفى الإسلام» على رأى بعض العلماء<sup>(١)</sup>، وكتابه المثنوى مرتبطان بآسيا الصغرى أيضاً. وقد أخذ أتباع هذه الطريقة منذ نشأتها يكتبون باللغة التركية واللغة الفارسية. ووجدت «الدرويشية» والشعر الصوفى فى موطن الترك بآسيا الصغرى بيئة أصلح لهما من إيران؛ فسارا فيها سيرا أكثر استقلالاً ونضوجاً . وفى القرن السابع أيضاً اتُّخذت اللغة التركية لغة رسمية للدولة فى آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup>، ونشأت بهذه الصورة لغة أدبية مصطنعة ولكنها جميلة، محتوية على كثير من الكلمات العربية والفارسية ، ومحافضة على الصيغ الصرفية التركية الخالصة. وكانت هذه اللغة تخالف لغة الشعب مخالفة تامة فلا يفهمها . وكما ظهر تأثير الأدب الإيرانى ظهر تأثير فن العمارة الإيرانية أيضاً؛ فأنشئت فى قونية وبروسة مبان متأثرة بالأساليب الإيرانية، غير أنها لم تكن مقلدة تقليداً محضاً؛ فتبدو فى المباني المنشأة فى قونية مع الأثر الإيرانى آثاراً للتقاليد المحلية السابقة للإسلام.

كانت آسيا الصغرى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) بأيدي شعبة من السلاجقة الذين حكموا فى إيران والعراق . وفى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى خضع سلاجقة آسيا الصغرى لملوك المغول (الإيلخانية) الحاكمين فى إيران، وقد انقطعت العلاقات بين إيران والتركستان عدة قرون بعد إنهيار الدولة السامانية فى نهاية القرن الرابع الهجرى (نهاية القرن العاشر الميلادى) ؛ وفى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وفق السلطان محمد ملك خوارزم، كما

(١) إن كون جلال الدين من عظماء متصوفى الإسلام ليس رأياً لبعض العلماء ولكنه مسلم عند كل من يعرف تاريخ التصوف الإسلامى.

(٢) الدولة العثمانية قامت سنة ٧٠٠هـ ولم تتخذ التركية قبل قيامها لغة دولة إلا مدة قصيرة حينما استولى العثمانيون على بورصا (بروسه).



رأينا سابقاً ، لجمع التركستان وإيران فى إدارة واحدة. إلا أن دولته كانت قصيرة العمر؛ فلم تؤثر فى تقدم الحضارة. وفى عهد خلفاء جنكيزخان تألفت فى التركستان دولة مغولية مستقلة ، فتحول الخلاف بين خانات التركستان وخانات إيران إلى عداوة. ورغم ذلك نشأ فى التركستان فى هذا العهد أدب تركى متأثر بالأدب الفارسى. وكانت اللغة التركية تعد اللغة الثقافية الثالثة للعالم الإسلامى منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى). قال جمال الدين القَرشى الذى شرع فى تأليف كتابه فى بداية القرن الثامن الهجرى (بداية الرابع عشر الميلادى) ، إنه كان للشيخ حسام الدين عاصمى ، وهو من معاصريه ، مؤلفات عدة باللغات الثلاث، وإن أشعاره العربية ممتازة بالفصاحة، وأشعاره الفارسية «بالملاحه»، وأشعاره التركية بالصحة؛ فعلى هذا يبدو تفوق الأدب العربى فى الفصاحة كما كان فى عهد المأمون، وتفوق الأدب الفارسى فى عمق معناه . وأما الأدب التركى الذى أخذ يتكون حديثاً ، فكان تابعاً من كلتا الجهتين للأدب العربى والأدب الفارسى وجاذباً للقلوب ببساطته وصدقته .

إن نهاية القرن الثامن والقرن التاسع (نهاية الرابع عشر والقرن الخامس عشر) هو عهد التركستان اللألاء الذى لم تشاهد مثله قط . وقد اتحدت التركستان وإيران من جديد فى حكم تيمور وأسرته. وذهبت جيوش تيمور إلى مسافات شاسعة؛ ففى الغرب إلى بروسه وأزمير ، وفى الجنوب الشرقى إلى دهلى ، وفى الشمال إلى إيرتيش<sup>(١)</sup>. ولم يكن تيمور أقل من جنكيز قسوة وسفكا للدماء فى البلاد التى استولى عليها، ولكن كان نشاطه فى الإصلاح عظيماً كنشاطه فى التخريب . ضُربت أعناق عشرات الآلاف من الناس فى المدن الكبرى، وأقيمت أبراج من رؤوس الإنسان، وعوقب آلاف من الناس بعقوبات قاسية . وفى الوقت نفسه أنشئت قنوات مياه كبيرة هائلة ومبان عظيمة . وقد اهتم تيمور اهتماماً خاصاً بإصلاح سمرقند عاصمة ملكه، وأحضر إليها، بالقوة أحياناً ، كثيراً من العلماء والصناع من البلاد التى خربها . وأسمى تيمور القرى التى انشأها حول سمرقند بأسماء المدن الكبيرة كدمشق ومصر وشيراز وسلطانية ، قاصداً بذلك ضمان تفوق عاصمته على المدن الأخرى.

(١) إقليم فى سبيريا يمر به نهر ابرتيش.

أنشئت المباني على الطراز الإيراني، إلا أنها فاقت نماذجها في ضخامتها. وكان تيمور يدل على الطريق في هذا الشأن أيضا، بل يحير المهندسين المعماريين أحيانا بأرائه الجديدة التي يعجز عنها الفن. ومعظم المباني الباقية من عهد تيمور خربة اليوم. وقد كان بعضها في حاجة إلى التعمير منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وكان جامع سمرقند المسمى «مسجد بينى خانم»، وهو أكبر تلك المباني، قد بلغ حالة مخيفة في حياة تيمور، إذ كانت قطع الأجر المتساقطة تزعج الجماعة أثناء إقامة الجمعة.

وأما في زمن أبناء تيمور فقد تقدم الإصلاح بقوة شديدة بالقياس إلى التخريب، وفقدت المقاصد الحربية قوتها القديمة، بل تقلصت حدود الدولة قليلا قليلا.

استمرت أعمال الإصلاح في المدن الكبرى وخاصة في سمرقند وهراة بنشاط عظيم؛ فأخذ العلماء والشعراء والصناع يقدمون إلى قصر الملك راغبين وقد ترك حكم ألوغ بك حفيد تيمور الذي امتد أربعين عامًا (٨١٢-٨٥٣ هـ / ١٤٠٩-١٤٤٩ م) آثارًا كثيرة جدًا في سمرقند. ومنها المدرسة التي في بخارى المنقوش على جدارها «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، والمدرسة التي بسمرقند. وكان قاضي زاده الرومي يقوم بتدريس علم الهيئة في هذه المدرسة، علاوة على العلوم الدينية التي تدرس فيها. وأما المرصد الذي أنشأه ألوغ بك فقد أدى على قصر مدته أعمالا جليلة. وكان علماء إيران وطلبتهم الذين أحضروا من إيران يدرسون فيه حركات الكواكب، وألوغ بك نفسه يشتغل معهم. وباسمه نُظمت جداول الهيئة وفهرس الكواكب<sup>(١)</sup>. وهذا الكتاب هو آخر كلمة الهيئة في القرون الوسطى، وآخر مرحلة بلغها العلم قبل اختراع المنظار (التلسكوب). ولألوغ بك مكانة ممتازة في تاريخ العالم الإسلامي باعتباره ملكا عالما. ولم يجد معاصروه شبيها له غير الإسكندر تلميذ أرسطو المتوج. وكان ألوغ بك متشعبًا بفكرة رقى الإنسانية العامة أكثر من الفروق الدينية والقومية. وقد أبدى في مقدمة جداول الهيئة رأيا جديرا بكثير من الاهتمام وإن كان خطأ؛ فهو يرى «أن النتائج التي تنتجها العلوم المثبتة تحافظ على قيمتها دائما، وليس لتغير الأزمان والقوميات واللغات تأثير فيها». والحقيقة أن ليس

(١) يعنى الزيج الذى ألف بأمر ألوغ بك وسمى الزيج الجديد السلطاني.

لكتب علماء اليونان والرومان اليوم غير خطورة تاريخية، بينما تحافظ كتب أدباء اليونان والرومان على جدتها وجمالها حتى مع ترجمتها إلى لغات أقوام أخرى فى أزمان مختلفة؛ فرأى ألوغ بك طبيعى جداً للحضارة الإسلامية التى أخذت فلسفة اليونان وعلومهم ولكنها ظلت جاهلة بأدبهم.

ومن الطلبة الذين درسوا مع ألوغ بك فى قصره على قوشجى ، وكان ألوغ بك يسميه ابنه . كان المرصد خرباً فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . وأما فى القرن العشرين الميلادى فلم يمكن الحصول على أطلاله إلا بالحفر . انتقل قوشجى من التركستان إلى إيران ومنها إلى تركيا وخرج فيها كثيراً من الطلبة.

وأزهى عهد هراة أيام حكم السلطان حسين بيقر (٨٧٤-٩١٢ هـ / ١٤٦٩-١٥٠٦ م) وقد ظن أهل آسيا الوسطى أنه لا توجد مدينة على وجه الأرض يمكن مقارنتها بهراة . ولم تنشأ هذه العقيدة من سعتها بل من نظرهم إلى مستوى الحياة المدنية فيها، وإلا فإن هراة كانت أصغر من سمرقند . وكان عهد السلطان حسين زمناً غريباً، اجتهد فيه كل الناس لأتقان ما يعملونه على أكمل وجه. وكان على شير<sup>(١)</sup> يقوم بحماية العلم والفن، فاسم الجامى وهو أحد عظماء شعراء إيران<sup>(٢)</sup> واسم ميرخوند مؤلف التاريخ العام المشهور جداً فى إيران اليوم<sup>(٣)</sup> متصلان اتصالاً وثيقاً باسمى السلطان حسين ونوائى.

وكانت تحت سلطان ألوغ بك إمارة بخارى الحالية وبلاد كاشغر وولاية سمرقند وفرغانة وناحية واسعة من مقاطعة سيحون (سيردرىا) . وأما خراسان وأفغانستان وقسم من خوارزم

(١) الأمير على شيرنوائى أحد حماة العلم والأدب فى عهد السلطان حسين بيقر وأعظم طلائع الأدب التركى بلغة چغتای. وآثاره فى التأليف ورعاية المؤلفين، وفى تشييد الأبنية العامة والمدارس وإجراء الصدقات مضرب المثل . توفى سنة ٩٠٦ هـ.

(٢) الشيخ عبد الرحمن الجامى أحد كبار العلماء والشعراء فى القرن التاسع الهجرى، له كتب كثيرة عربية وفارسية فى اللغة والتفسير ، وله منظومات كثيرة بالفارسية توفى سنة ٨٩٨ هـ.

(٣) كتاب روضة الصفاء فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء ، ولائحه خوندمير كتاب فى التاريخ قيم يسمى حبيب السير فى أخبار أفراد البشر.

فكانت تحت حكم السلطان حسين بيقرا. ولكن لم يقتصر تأثير الحضارة الإيرانية على حدود هاتين الدولتين، بل قلّد جيرانهم الشرقيون ما قام به تيمور وأبناؤه من النشاط المعماري. ولعلّ الجامع الذي فى شمال غربى مدينة غولجه<sup>(١)</sup> والذي يقال إنه بناء تغلق تيمور<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٧٦٢هـ (فى رأس سنة ١٣٦٠م) يرجع إلى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وقد بنى فى القرن التاسع الهجرى «كروانسراى طاش رباط»<sup>(٣)</sup> على إحدى الطرق الأصليّة الموصلة إلى كاشغر فى القسم الجنوبي من مقاطعة «يدعى صو» Semircce ، وأما المثذنة المشهورة بـ «بوران» التى ببلدة «طوقماق» فى مقاطعة «يدى صو» فلم يعلم متى بنيت ، فلا تؤثر كتابة عنها ولا عليها نقوش.

كانت لغة تيمور وأسرته الأصليّة هى اللغة التركية. وإذا نظرنا إلى أعمال تيمور وأبنائه لم نجد فيهم إحساساً بالقومية التركية. ولكن إخوانهم فى القومية انتفعوا بعظمتهم وسلطانهم فى رفع شأن اللغة التركية وأدبها . ظل الشعر التركى مقلداً ، إلا أن الشعراء الترك لم يكونوا يرون كتبهم أقل من نماذجها الفارسية. وقد عدّ الشعر التركى جديراً بقوة ملوك الترك وعظمتهم . قال الشاعر السكاكى لألوغ بك: «سيدور الفلك كثيرٌ حتى ينبج شاعراً تركياً مثلى وملكا مثلك» . وقد كسف على شير نوائى جميع من سبقوه من الشعراء. كان نوائى يكتب بالفارسية أيضاً، إلا أنه ذاع صيته شاعراً تركياً ، فصارت مؤلفاته كتباً تقليدية (كلاسيك) لجميع الأتراك فى الأقاليم الواسعة من مدينة «توبول» إلى استانبول . كان نوائى تركياً ومحباً لوطنه . وقد حاول أن يثبت أن اللغة التركية ليست

(١) عاصمة إقليم غولجه أوإبلى بمقاطعة جونغاريا بشمال غربى الصين. عدد سكانها نحو اثنى عشر ألفاً معظمهم من الأتراك المسلمين وبها عدة مساجد بنت الحكومة الصينية بعضها، وبعض معابد للوثنيين وكنيستان.

(٢) من أحفاد جغتای بن جنكيزخان ، حكم فى بلاد المغول ومقاطعة كاشغر فى أواسط القرن الثامن الهجرى. وكان دخوله فى الإسلام سنة ٧٥٤ مختاراً سبباً لإسلام كثير من المغول وقبائل الجغتای التى لم تكن أسلمت بعد. ومنذ هذا التاريخ أصبح الحكم فى مقاطعة كاشغر فى يد المسلمين.

(٣) كروانسراى ، أى منزل القافلة ، بناءً يُبنى على الطريق لإيواء المسافرين ، وكان فى إيران وآسيا الوسطى كثير من هذه الأبنية.

بأقل من الفارسية<sup>(١)</sup> ولهذه الغاية أخذ موضوعات الأدب الإيراني وكتب فيها مثنويات بالتركية. وهكذا لم يستطع إنقاذ الأدب التركي من التقليد حتى شاعره التقليدي. ومع ذلك فليست مؤلفاته صوراً من الأدب الإيراني فقط؛ فلغته بالرغم من أنها مصطنعة، أبسط من غاذجها كثيراً وأوضح منها وأقرب إلى الحقيقة. ويتجلى في كتبه الإبداع الخاص بأدب العهد التيموري. وقد رأى الشاعر السكون معادلاً للموت.

وتنطبق الأقوال المذكورة على مؤلفات بابر أيضاً انطباقاً تاماً. وقد اضطر الميرزا بابر المولود سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) والمتوفى سنة ٩٣٧ م (١٥٣٠ م) إلى مغادرة تركستان تحت ضغط الأوزبك وأن يؤسس دولة جديدة في الهند. وعرف لباير منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) سيرته المسماة «بابرنامه» وهو كتاب النثر التركي التقليدي بحق، زيادة على كتبه المنظومة والمنشورة. وقد ألف بابر كتابه هذا بلغة تركية سهلة واضحة، مع وقوفه التام على الثقافة الإسلامية والأدب الإيراني، وتقدير القراء لأسلوبه هذا دليل على ما فيه من ذوق أدبي سليم ومتمين. وتزيد خطورة هذا الأسلوب إذا فكرنا في وصف دولتشاه السمرقندي وهو أحد كتاب الأدب الإيراني في ذلك العهد لأسلوب رودكي السهل بأنه أسلوب رديء، ووصف الكتاب العثمانيين اللغة التركية السهلة التي كتبها أجدادهم بأنها لغة «تركية غليظة». وقد كان تيمور يطلب إلى المؤلفين أن يؤلفوا كتبهم بحيث يحبها المثقفون ويفهمها غير المثقفين. وأظن أن هذه الرغبة لم تكن رغبة تيمور وحده بل رغبة جمهرة عظيمة في عهد التيموريين. إذ كانت الأنظار لم تتحول بعد إلى الخلف بل كانت متجهة إلى الأمام؛ فبدل تقليد الآباء على غير هدى وضع بابر هذا الأصل الواضح: «إن كان أبوك قد وضع قانوناً فاحفظه، وإن كان هذا القانون سيئاً فاعمل أحسن منه»<sup>(٢)</sup>.

(١) كتب نوائى فى هذا كتاب محاكمة اللغتين وبين فيه مزايا التركية وقارنها بالفارسية.

(٢) هو ظهير الدين محمد بابر شاه من أحفاد تيمورلنك ومؤسس الدولة التيمورية فى الهند، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحاً وصبراً على غير الزمان. فقد أمانة صغيرة فيما وراء النهر، فأبت همته إلا أن تختط لنفسه مملكة فى أفغانستان اتسعت من بعد حتى شملت البنجاب وبعض أقاليم الهند وتركت للتاريخ دولة من أعظم الدول التى عرفها. وله سيرة كتبها بنفسه سجل فيها التغيرات التى مرت به منذ صباه وهى من أمتع السير وأروعها.

## الفصل السادس

### العالم الإسلامى بعد القرن التاسع

إن القرنين التاسع والعاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) هما عهد وفق فيه السلاح الإسلامى أعظم التوفيقات . فقد وُضع أساس دولتين عظيمتين فى هذا العهد، غير الدولة العثمانية التى أسقطت بوزنطة وهددت ثينا . إحدى هاتين الدولتين هى الدولة الصفوية والأخرى هى الدولة المغولية العظمى التى تأسست بالهند، أى دولة أسرة بابر. ومع ذلك قد بدأت مصائب العالم الإسلامى فى هذا القرن أيضاً . إذ أن التفوق المدنى الذى ظل فى الشرق الأدنى زهاء ألف عام قد بلغ نهايته فى هذا العصر وانتقل التفوق المدنى إلى الأوربيين الغربيين.

وتدل الحوادث التى ذكرناها سابقاً على أن هذه الحال لا يمكن تفسيرها بأنها ناشئة عن شيخوخة الحضارة التى عاشت ألف عام؛ فقد قام العرب والإيرانيون بعمل ما استطاعوا عمله خير قيام. ولا يجوز مطلقاً أن يقال إن الأتراك لم يبدعوا شيئاً . وقديماً اشتكى كتاب اليونان والرومان قائلين : «شاخت الدنيا ونفدت قوة الإنبات فى الأرض، وجفّت الينابيع ، ولا يزيد الناس، فلا ينشأ جندى ولا ملاح ولا زارع» . ولكننا لا نرى فى الأدب الإسلامى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر) مثل هذه الشكايات . والحق أنها ليس لها سبب ، لأن العالم الإسلامى لم يفقد بعد قدرته على الحضارة. ومع ذلك لم يقدر على مزاحمة عالم المسيحية. وقد تقدمت حياة المدن والتجارة والصناعة فى أوربا فى هذا العهد تقدماً سريعاً جداً. ولم تتحول المنازعات بين الطبقات والدول إلى شكل مشوش كما حدث فى الشرق الأدنى من هجمات البرابرة . وفى القرن التاسع أيضاً انتصرت الصناعات التى تكفلت بتفوق أوربا على جميع العالم.

ويحتمل أن البارود كان معروفًا في الشرق الأقصى، وربما انتفع به في الحروب أيضًا. ولكن لم تختراع الأسلحة النارية إلا في أوروبا. وعرف اختراع الأوربيين هذا للدول الشرقية بعد مدة قصيرة، حتى إن الترك استفادوا منه في فتح استانبول فائدة كبيرة. وقد كان العثمانيون في القرن العاشر الهجرى (السادس عشر) لا يتأخرون عن الأوربيين في شئ من فنون الحرب. ولكن هذه المخترعات الأوربية دخلت في الشعوب الإسلامية البعيدة عنها ببطء شديد. ولم تكن سيبريا، وهي أبعد نقطة في العالم الإسلامى شمالاً، تعرف الأسلحة النارية حتى في النصف الثانى من القرن السادس عشر، وقد ساعدت هذه الحال مساعدة كبيرة في انتصار الروس. ولإنشاء السفن خطورة خاصة في أوروبا. فبعد استكشاف رأس الرجاء الصالح أخذت سفن أوروبا تمخر عباب الماء في بحر الهند. ولم يقدر المسلمون على مقاومتهم فاضطروا إلى ترك تجارة الهند والصين البحرية.

لم يرض العالم الإسلامى بهذه الحال في الوهلة الأولى. ففي النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) أدرك الترك درجة تفوق الأوربيين في البحر، ورأوا وجوب إنشاء أسطول كأسطول الأوربيين، كما قلد الأوربيون العرب في هذا سابقًا. ومما يلفت النظر كثيرًا أن الرّبان سُمى في تركيا قپودانًا (قپودان پاشا) وهو اسم مستعار من الأوربيين في حين أن الأوربيين استعملوا لقواد الأسطول كلمة «أميرال» المأخوذة من كلمة أمير الماء العربية. وفقّ الترك مرة واحدة عام ١٥٣٨ لإرسال أسطول إلى شواطئ الهند، إلا أن هذا المشروع لم ينتج ولم يتكرر. وقد انتقلت المكانة الأولى في أوروبا من الطرق البرية إلى البحرية بتقدّم الملاحة واستكشاف أمريكا. ولم تقف تجارة القوافل التي كانت ترفع شأن المدن الكبيرة أمثال سمرقند وهرّاة وقوقًا تامًا ولكنها فقدت خطورتها القديمة.

وفي القرن السادس عشر أيضًا خلق الفن (تكنيك) الأوربى الطباعة إحدى الوسائل العظيمة للحضارة. وقد كان فن الطباعة معروفًا في الصين من زمن بعيد؛ ولعل الأوربيين تعلموه منها، وانتقلت الطباعة من الصين إلى البلاد الأخرى في الشرق الأقصى. وسبق أهل «كوريا» الصينيين والأوربيين معًا في اختراع حروف معدنية متحركة. وكان فن طبع الكتب معروفًا في إيران كما كان معروفًا في الصين؛ ففي تاريخ رشيد الدين معلومات مفصلة عنه. ومع ذلك لم ينتفع به عالم الشرق الأقصى مثل ما انتفع به الأوربيون. وأما المسلمون

فلم يقدرُوا على الاستفادة منه مطلقًا. وقد طبع كثير من الكتب الأدبية والعلمية أيضًا، بالرغم من قلة عدد المتعلمين في أوروبا، نسبيًا في القرن الخامس عشر. وأخذ الأوربيون في القرن السادس عشر يطبعون الكتب المؤلفة باللغات الشرقية كذلك لأغراض علمية. وأما في العالم الإسلامي فلم تنشر الطباعة إلا في القرن الثامن عشر، وكان أول ظهورها في تركيا. أخذ المسلمون الأسلحة النارية من الأوربيين بدون أدنى تردد، ولكن وجب استفتاء علماء الدين في قبول فن الطباعة وهي إحدى مخترعات الكفار، إذ كان يمكن أن تحدث الاستفادة من الكتب المطبوعة، تغييرًا كبيرًا في عالم «المدارس» الدينية<sup>(١)</sup>.

تدل المقارنة بين الصين وأوروبا الغربية على أن الصناعة وحدها ليست سببًا كافيًا لازدهار الحياة الاجتماعية. وقد اتضح أنه يمكن معرفة صناعة البارود ولا تتكون العسكرية القوية، ويمكن معرفة بيت الأبرة (البوصلة) ولا تتقدم الملاحة البحرية، ويمكن معرفة فن الطباعة ولا يتكون الرأي العام. فلو لم يكن في أوروبا ذلك الرقى الاقتصادي والمدنى الذى له علاقة بعصر النهضة والذى أنزل الحضارة الإسلامية إلى الدرجة الثانية، لما أنتجت الطباعة هذه النتائج العظيمة. وقد اضطر المسلمون رويدًا رويدًا إلى التخلي للأوربيين عن الأستاذية حتى فى تعلم اللغات الشرقية وآدابها وتاريخ الشرق. ولما زحم علماء الهيئة الأوربيون المسلمين فى بلاد الصين وأخرجوهم منها فى القرن السابع عشر كثرت المخطوطات الشرقية فى مكتبات أوروبا إلى درجة أن استطاع د. هزبلو D.Herbelot أن يؤلف دائرة معارف خاصة بالعالم الإسلامى بدون أن يذهب إلى الشرق.

ولا ينبغى أن يُظن أن العالم الإسلامى قد مُنى بعد القرن التاسع الهجرى بانحطاط، وأنه لم يستطع أن يقدم للحضارة شيئًا جديدًا؛ فتركيا لم تكتف بشهرتها العسكرية فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين بل صارت استانبول إحدى مراكز الحضارة الكبرى للعالم الإسلامى. فلا تفوقها، فى كثرة المخطوطات الفارسية المحفوظة فى مكتباتها إلا لندن ولنينجراد من المدن الأوربية. على أن خدمة الترك لم تقف عند حد التعريف بالتراث الباقى عن الماضى، بل أبرزوا أسلوبًا جديدًا فى فن العمارة يخالف العمارة الإيرانية، فالمباني التى بناها المعماري التركى الكبير سنان - وهو رومى الأصل - ليست مطلقًا

(١) كلمة «مدرسة» كانت تطلق فى تركيا وإيران على المعاهد الدينية فقط.



بأقل من آثار عهد النهضة المعمارية فى أوربا. ويعد سنان جامع سليمانى الذى بأدرنة من أعظم آثاره.

وقد عاش العالم التركى المشهور والمعروف بكاتب چلبى أو حاجى خليفة فى القرن الحادى عشر (السابع عشر الميلادى). ومن مؤلفاته كتابه العظيم فى فن الكتب الذى يشتمل على جميع شعب العلوم والآداب. وله كتاب آخر فى الجغرافيا<sup>(١)</sup> وهذا الكتاب محاولة جمعت معلومات الأوربيين والمسلمين فى الجغرافيا معاً. ولم تكن أوربا قد قامت بمثل هذه التجربة إلى ذلك الوقت. وفى القرن الحادى عشر نفسه قام أوليا چلبى برحلة كبيرة وألف كتابه المشهور. وأن هذا الكتاب بالرغم مما به من المعلومات الملفقة، يترك كتب العرب فى المؤخرة من حيث كثرة ما يحوى من المعلومات ووسعتها<sup>(٢)</sup>.

وكانت إيران فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى يحكمها الشاه عباس الكبير (٩٩٦-١٠٣٨ هـ / ١٥٨٧-١٦٢٨ م). وهذا العهد الطويل عهد زاه جداً فى تاريخ إيران، بقيت منه آثار معمارية عظيمة فى أصفهان، وكانت العاصمة، وفى مدن أخرى. وقد قارن سياح إيطالى فى زمن الشاه عباس «ميدان شاه عباس» وحديقة «چهار باغ» بأكبر شوارع وميادين المدن المسيحية فى ذلك العصر. ويزاد على هذا أن الأسرة القاجارية نفسها، وهى آخرة الأسر، اجتهدت فى تقدم حياة المدن غير مكثفية بتقوية نفوذ الحكومة، وعمرت مدينة تبريز فصارت مدينة عظيمة بعد أن خربت تماماً فى القرن الثامن عشر، وذلك زيادة على مدينة طهران العاصمة.

وكانت الدولة المغولية فى الهند لا تزال إمبراطورية قوية فى القرن السابع عشر. وتشكل فن العمارة الإيرانية هنا بشكل جديد متأثر بالهند؛ والآثار المعمارية التى خلفتها الدولة المغولية من ذلك العهد عظيمة ولو قيست بآثار الأوربيين فى العهد نفسه<sup>(٣)</sup>. وكانت ثروتهم تزيد كثيراً على ثروة فرنسا وهى أغنى دول أوربا فى ذلك العصر.

(١) كتاب جهاننما، وقد طبع فى استامبول سنة ١١٤٥ هـ.

(٢) يترجم الأستاذ حمزه الجزء الذى يخص مصر من هذا الكتاب إلى اللغة العربية لوزارة المعارف المصرية.

(٣) هذه الآثار أعظم من الآثار الأوربية المعاصرة ولا ريب. ولا توفيتها حقها الجملة الغامضة التى كتبها المؤلف.

إن البربرية لم تستطع الانتصار على الحضارة انتصاراً تاماً حتى فى التركستان التى استولى عليها الأزيك البرابرة فى القرن العاشر (القرن السادس عشر) . وقد استمرت تقاليد تيمور وبنيه فى سمرقند حتى فى القرن الحادى عشر الهجرى، نستدل على ذلك بمدرسى «شيردار» و «تيل قارى» استدلالاً بيّناً. وكانت ببخارى مكتبات غنية جداً فى تلك الأزمان، ذكر المؤرخون أنه كان بها كتب فى فلسفة الرواقيين والمشائين. وقد أنزل الأزيك ضربة قاضية بالتجارة وحياة المدن فى خوارزم. ولكن تقدمت الأعمال الزراعية إلى حد ما بفتح قنوات كبيرة جديدة، وتم فى فرغانة أيام حكم خانات خوقند فى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) أعمال رى عظيمة وأنشئت مدن جديدة. وكما أن فن العمارة تأثر بالهند فى الدولة المغولية الكبرى فإن فن العمارة الإسلامية كان تحت تأثير الصينيين فى جهات التركستان التى استولى عليها الصينيون فنشأ أسلوب مزيج ، ظهر حتى فى بعض المساجد.

كل هذا يدل على أن القول بأن العالم الإسلامى «كان فى نوم عميق» قبل أن يأخذ فى النهوض بتأثير أوروبا فى القرن التاسع عشر ، مبالغ فيه كثيراً . وحق أن الظروف الملائمة التى أنتجت الحضارة الإسلامية لم تبق . وقد اضطرت الدول الإسلامية فى هذا الزمن لأن تضع نصب عينيهما فى الصف الأول، الشؤون الحربية وترقية العناصر التى تؤهل الشعب لأن يكون موضع الثقة من حيث العسكرية ولو كانت مضرة من الوجهة المدنية. واضطرت الدولة العثمانية التى لم تكن فى البدء مرتبطة بالدين ارتباطاً كبيراً، والتى كانت تحت تأثير الدوريشية الحرة - اضطرت إلى إحياء المآثر الإسلامية الحربية مراعاة للأحوال ؛ فرجع لواء الرسول الأخضر للمرة الأولى فى ميدان القتال فى الحروب الأوربية سنة ١٥٩٣<sup>(١)</sup>

(١) كان ذلك فى أواخر عهد السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم الثانى فى حربه مع المجر (١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م حيث نقل اللواء النبوى الشريف من دمشق الشام وكان محفوظاً بها منذ أن فتح السلطان سليم مصر. حمله منها إلى الآستانة انكشارية الشام، ثم نقل من استانبول فى حراسة ألف رجل من الإنكشارية إلى الجيش المحارب ببلاد المجر، فأثار منظره الحمية فى نفوس المجاهدين الأبطال، ولكنهم تعللوا بأنه لم يسبق أن شتا جيش المسلمين بعيداً عن السلطان، وانضم إلى ذلك عودة أغا الإنكشارية إلى استامبول ، والأرجاف بمرض للسلطان ؛ فخيف من وقوع الخلل فى نظام الجيش.

(وجد هذا اللواء بجوار دمشق ولكن لا نجد فى مرجع من المراجع القديمة شيئاً عن مثل هذا اللواء) ولم يكن ممكناً للدول فى هذه الظروف ألا تنصر رجال الدين على رجال العلم ؛ وتؤثر البرابرة أمثال الأرانطة والأكراد المحاربين على المزارعين وسكان المدن . وفى مثل هذه الظروف المذكورة آذن مؤسس الدولة الصفوية فى إيران بجعل التشيع ديناً للدولة . فأمكنه أن يظهر حروبه مع العثمانيين ، جيرانه فى الغرب ، ومع الأتراك جيرانه فى الشرق فى صورة حروب دينية ؛ فبلغت المنازعة بين أهل السنة والشيعة منذ القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) شدة لم يشاهد مثلها فى القرون الوسطى ، فأخذ أهل السنة والشيعة يكفر بعضهم بعضاً معتمدين على رؤسائهم الدينيين . وصارت الشيعة المجادلة كياناً مقدساً لإيران . حتى نشاهد أحياناً أن السكة ضربت باسم إمام الشيعة المتوفى فى المشهد الأول القرن الثالث الهجرى وذلك خلال أزمت السلطنة التى حدثت فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر) . وقد زاد نفوذ رجال الدين كثيراً فى إيران الرافضية ، فلقنوا الشعب التعصب الدينى والمذهبى أقوى مما فى تركيا السنية .

ولكن كانت الحالة غير هذه على خط مستقيم فى الهند فى عهد الإمبراطورية المغولية الكبرى؛ فقد تقدمت هذه الدولة على الدول الإسلامية الأخرى تقدماً كبيراً سواء فى الرفاه المادى أو السماح الدينى . وأما أسباب عجز المسلمين هنا على مزاحمة الأوربيين فى ميادين النشاط العملى فأمر أخرى؛ فإن الإمبراطورية المغولية الكبرى كانت دولة عظيمة مؤسسة على أصول شرقى آسيا ، وغنية من الوجهة المادية إلى درجة أنها لم تكن فى حاجة إلى الاتصال بالأجانب .

وقد كانت الشؤون الزراعية فى عهد المغول ، باعتراف الإنجليز أنفسهم فيما بعد ، أرقى منها بعد استيلاء الإنجليز عليها . ويرى الإنجليز أن خدماتهم التى قاموا بها للهند هى أنهم كفلوا لها تقدم التجارة البحرية؛ فهم أنشأوا مدناً ساحلية مثل كلكتة وبومباى ومدراس وهى مدن لم تكن فى الهند القديمة ما يشبهها .

وبهذه الصورة انتقلت الأوليّة فى ساحة الحضارة من المسلمين إلى المسيحيين . وفى أوروبا عُمل كل ما يفصل أساليب المعيشة عن حياة القرون الوسطى . واتجه انتشار الحضارة اليوم

من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق خاصة. ولهذه الحال خطورة بالنسبة لأوروبا الشرقية خاصة إذ قد تعينت بهذه الصورة واجبات روسيا أيضاً نحو الحضارة<sup>(١)</sup>. وقد كانت سواحل البحر الأسود الشمالية تابعة في القرون الوسطى كما كانت في القرون القديمة، لسواحلها الجنوبية سواء في الحضارة أو في السياسة. وفي القرن الثامن عشر نشأت مدن في السواحل الشمالية لا يمكن مقارنة مدينته من مدن السواحل الجنوبية بها. وصلت الحضارة في القرون الوسطى إلى شواطئ قوبلجا من بخارى وخبوه (خوارزم)؛ وأما في القرن التاسع عشر فتعرّف تتار قوبلجا بالأدب الأوربي بوساطة الروس ثم أخذوا في تثقيف التركستانيين إخوانهم في الدين.

---

(١) أراد بارتولد في آخر كتابه إظهار وظيفة الدولة الأوربية المستعمرة والدفاع عنها؛ هذه النظرة السياسية البحتة التي ليست علمية ولا تاريخية في شيء، قد تكون طبيعية لعالم روسي، وأما المثقفون من الترك والمسلمين فلا يقابلون مثل هذا الدفاع الذي تتذرع به الدول المستعمرة. إلا بأن ينظروا إليه متعجبين!



## فهرس المحتويات

٣	تقديم الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم.....
٥	مقدمة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام .....
١١	ترجمة حياة المستشرق بارتولد لمرجم الكتاب .....
١٥	مقدمة العلامة محمد فؤاد كوبريلي .....
٢٧	المدخل .....

تعريف الحضارة الإسلامية أو الحضارة العربية - الآراء فى الشرق والشرق  
الأقصى - الشرق الأدنى وشأنه فى حضارة العالم - تأثير العلاقات بين الأقبام فى  
التقدم الحضارى.

### الفصل الأول

٣٣	الشرق المسيحى وخطورته للإسلام .....
----	-------------------------------------

المسيحية وعلاقتها بالحضارة القديمة - الدولة الرومانية الشرقية وإيران الساسانيين  
- فتح العرب وأثره فى المسيحية - الإسلام والنصارى - دخول الفلسفة اليونانية فى  
البلاد الإسلامية - حركات الشعوبية - تأخر مسيحى الشرق فى الحضارة - موقع  
نصارى الشرق المدنى والاجتماعى - البلاد المسيحية التى خرجت من أيدي المسلمين -  
مسيحيو الشرق وأوربا - الحركة القومية

### الفصل الثانى

٤٥	الخلافة ومبدأ الحضارة العربية .....
----	-------------------------------------

فتوح العرب - انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية - المدن الإسلامية الجديدة  
وحياة المدن الإسلامية - حياة المدن فى إيران وتركستان - استمرار تأثير بوزنطة  
وإيران المدنى - اجتماع الحياة المدنية فى البصرة والكوفة ومبدأ العلوم الإسلامية

## الفصل الثالث

### بغداد وازدهار الحضارة المتأخر ..... ٥٣

إنشاء بغداد - النظام الإدارى والدواوين - العمال الكبار ورواتبهم - الحياة العلمية ونشاط الترجمة - ازدهار العلوم الإسلامية فى القرنين التاسع والعاشر والعلماء العظام - العلاقات العلمية بين البلاد الإسلامية - الجغرافية الإسلامية - ازدهار الفكر ونتائجه - إنشاء مدينة سامرا - الضرائب - مسألة الأرض - التغييرات الاجتماعية فى إيران وتركستان - تقلص الدولة العباسية - الفاطميون والحضارة الإسلامية فى مصر - ابن خلدون ونظرياته - نهاية خلافة بغداد.

## الفصل الرابع

### الحضارة الإيرانية وتأثيرها فى الممالك الإسلامية الأخرى ..... ٦٧

تأثير الاستيلاء العربى فى إيران - النهضة القومية الإيرانية - انتشار الشيعة فى إيران ومسألة الأراضى - حياة المدن فى إيران ومدينة إصفهان - الطبقات الاجتماعية والمنازعات الاجتماعية - وموقع العلماء - اللغة الإيرانية الإسلامية: الدولة الطاهرية والدولة السامانية - صيرورة اللغة الفارسية اللغة الرسمية - الشعراء الأول: الردوى والدقيقى - الدولة البويهية - الدولة الغزنوية، الفردوسى والشاهنامه - النهضة الأدبية فى إيران الشرقية - النهضة العلمية فى إيران الغربية: ابن سينا، البيرونى - نظام المدن الجديدة فى إيران - ونهضة فن العمارة - تقدم الحضارة فى عهد السلاجقة وانتصار السنية - منازعات المذاهب والنزاع بين الطبقات - نهضة حياة المدن والنشاط التجارى والطرق التجارية - التجار المسلمون وانتشار الإسلام - العلاقات التجارية مع البلاد غير الإسلامية

## الفصل الخامس

### فتوح المغول وتأثيرها فى الحضارة الإسلامية ..... ٨٧

المسلمون والمغول - الاستيلاء المغولى والدولة السلغورية فى إيران - الآراء الخاطئة فى استيلاء المغول والفوائد المدنية لهذا الاستيلاء : الاستقرار السياسى ونهضة حياة المدن - ازدياد

العلاقات التجارية والحضارية بين الشرقين الأدنى والأقصى - النشاط العلمي، رشيد الدين وتاريخه العام - اتساع تأثير إيران المدنى - نهضة اللغة التركية والأدب التركى القديم والحديث والأدب التركى فى التركستان وإيران والأناضول - المغول فى البلاد الإسلامية واستتركهم وازدياد شعور الأتراك بقوميتهم أوغوزنامه وقصة السيد بطلال ودده قورقود - الحضارة التركية فى الأناضول - الأدب التركى فى تركستان - النهضة المدنية فى تركستان فى نهاية القرن الثامن والقرن التاسع: تيمورلنك وبنوه - القنوات والأبنية - ألوغ بك وسمرقند - السلطان حسين بيقر وهرآة - تغلق تيمور - اللغة التركية واللغة الفارسية فى العهد التيمورى؛ نوائى (على شير) وياير شاه .

## الفصل السادس

### العالم الإسلامى بعد القرن التاسع ..... ١٠١

التوفيقات السياسية والعسكرية - بدأ فقدان المسلمين تفوقهم فى الحضارة ونهضة أوروبا البارود والأسلحة النارية واكتشاف الطريق البحرى إلى الهند - البحرية فى الدولة العثمانية والأسطول - فن الطباعة - الوسائل الفنية والنهضة - تفوق أوروبا - التأخر التدريجى فى العالم الإسلامى - الدولة العثمانية والحضارة العثمانية: سنان المعمارى < حاجى خليفة وأولياجلينى إيران وعهد الشاه عباس فيها - المغول فى الهند - الأريك فى التركستان - : تأخر التجارة وحياة المدن، أعمال الرى والزراعة - حروب (منازعات) الدولة الصفوية والدولة العثمانية، الشيعة والسنية - الدولة المغولية الكبرى فى الهند- الاستعمار الإنجليزى والروسى.

### ملحق الصور ..... ١١٣





ملحق الصور





خريطة العالم للإدرسي



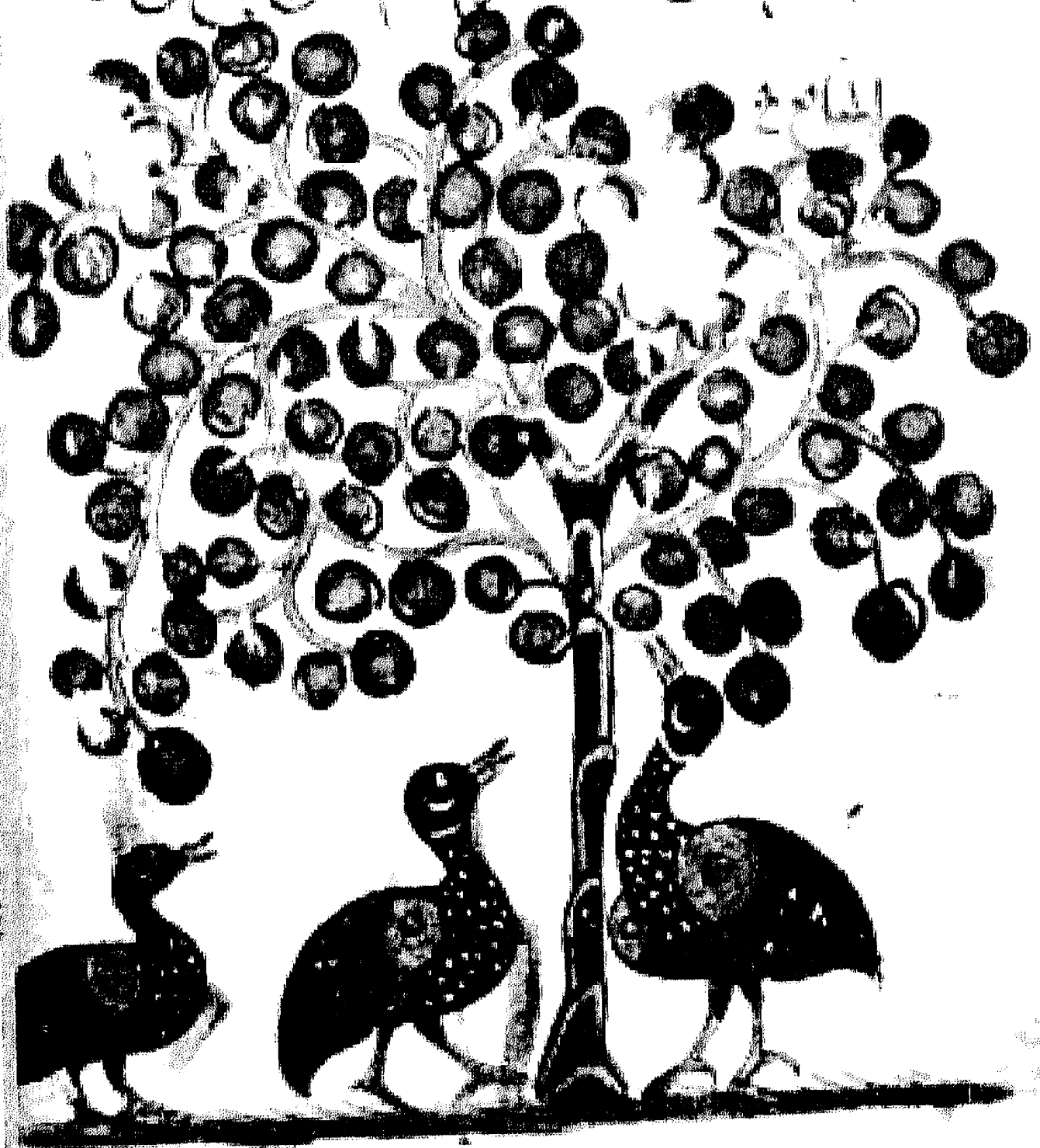
رسم تخیلی لابن سینا



المراصد الفلكية عند المسلمين



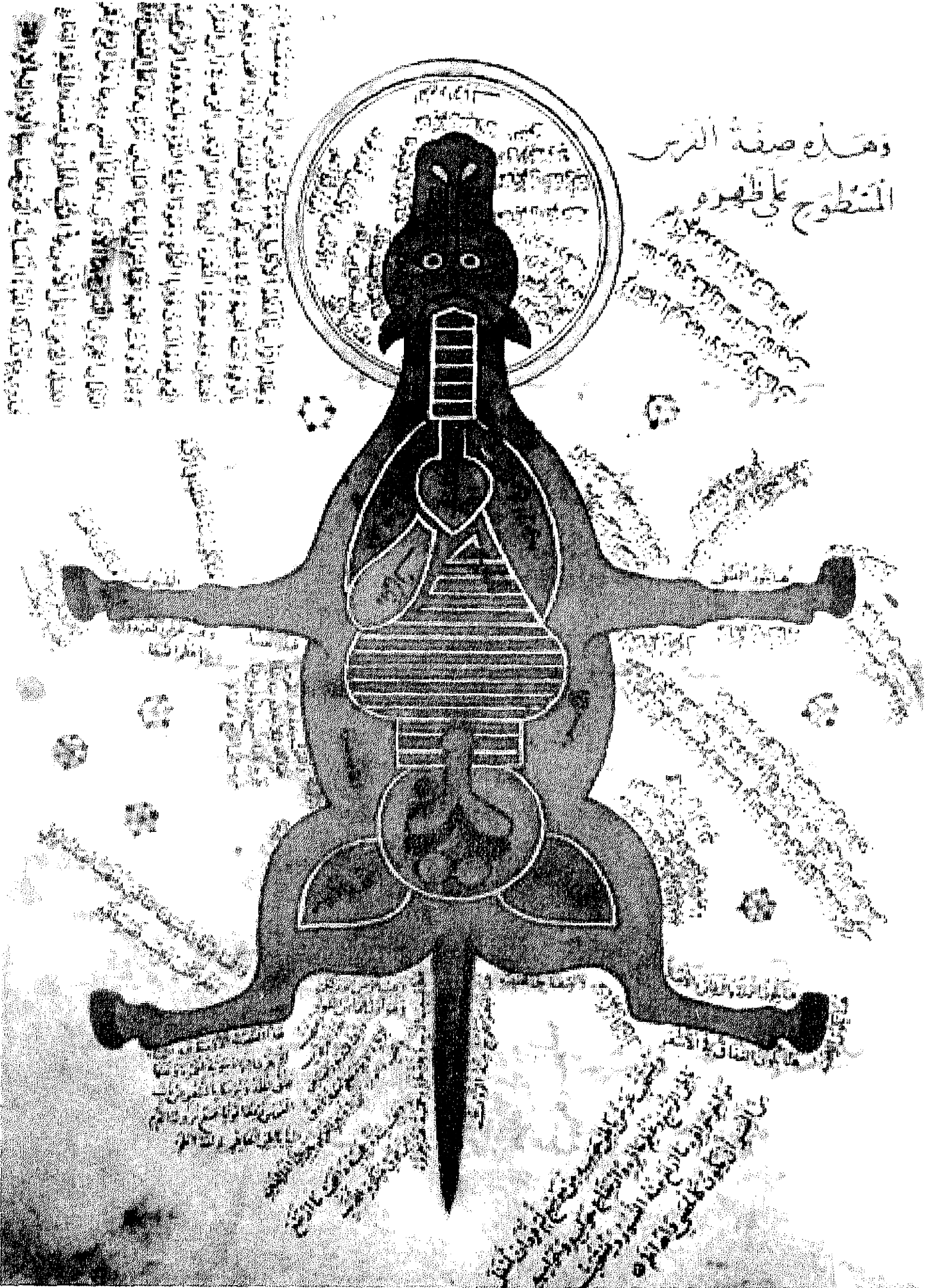
الْحَادِثِينَ الْيَوْمَ يَقُومُ مقامُ خُضْرٍ لِلرَّاحِ بِأَكْثَرِ



مِنْ كَسْبِهِمْ يَجِدُ الْحَيَاةَ وَالْمَاءَ وَلِذَلِكَ يُرْوَى

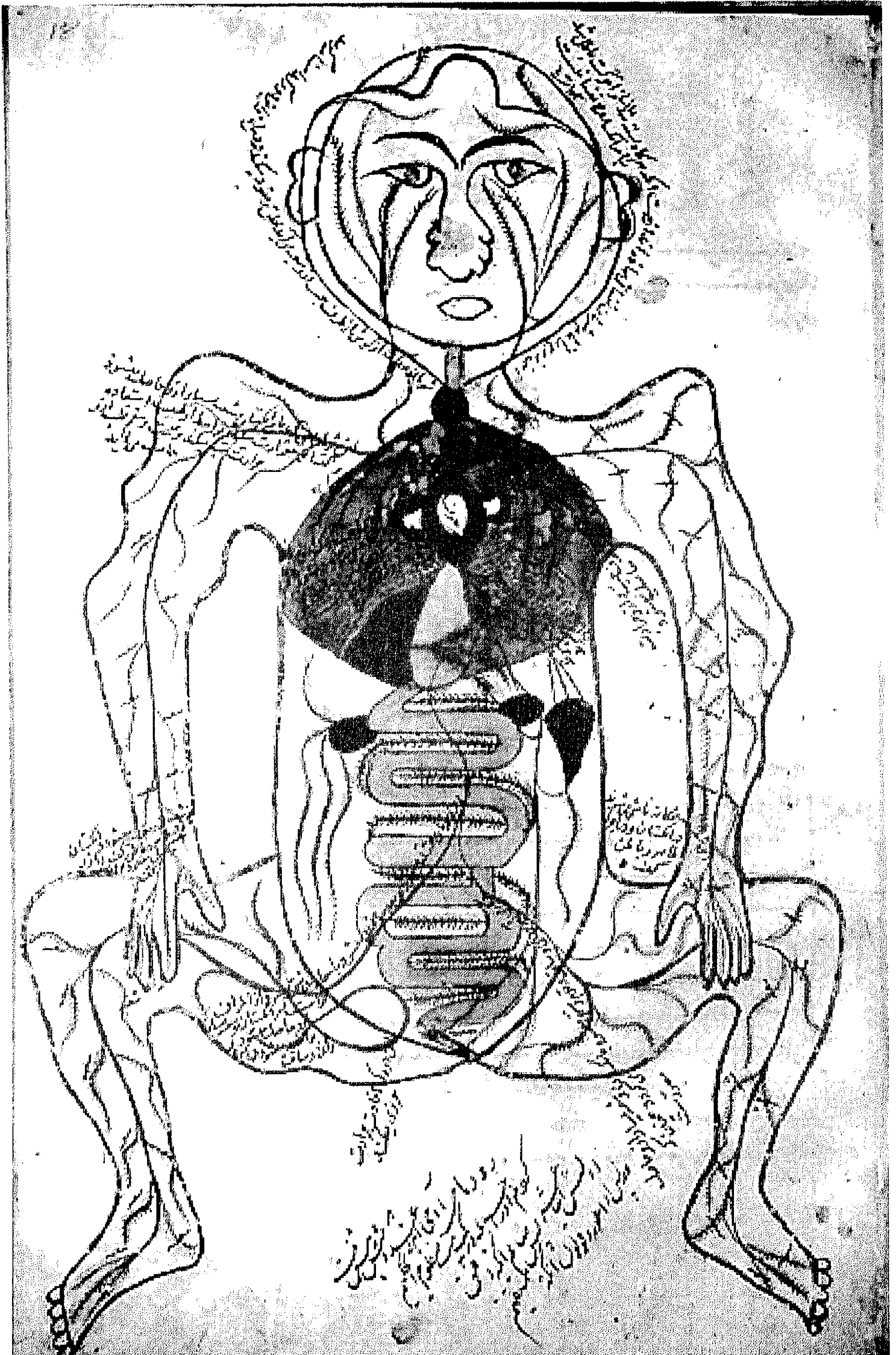


وهذه صفة الثور  
المنطوح على ظهره



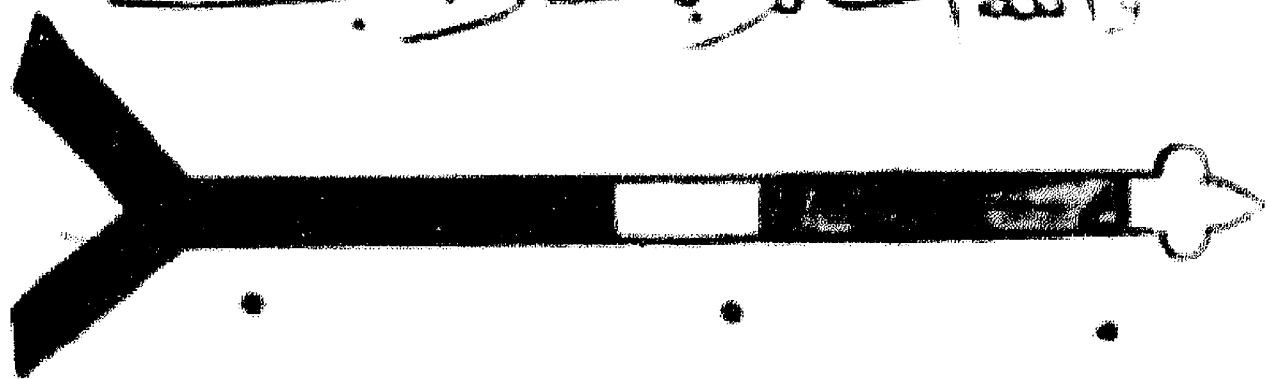
استخدمت هذه الترميز لتوضيح بعض المفاهيم

صورة من مخطوط لتشريح حصان



صورة من مخطوط لتشرح الإنسان

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ



صورة المشدخ الذي نشدخ به رأس الجبيران شاء الله تعالى



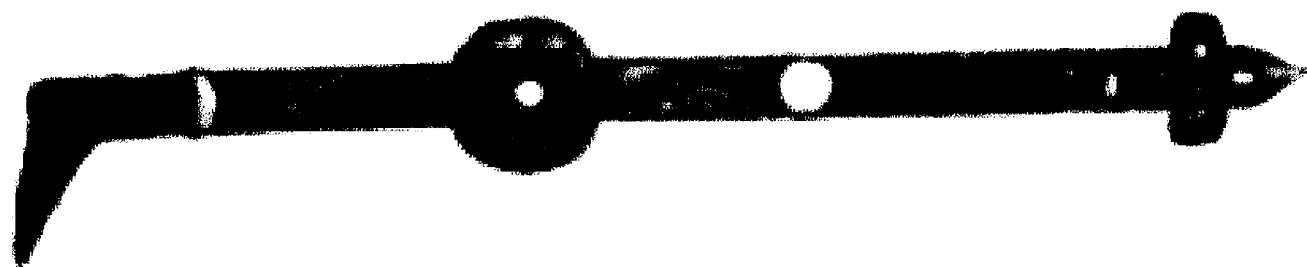
سبب المقولة أسنان في الطرف كما ترى تدفع منتظمة

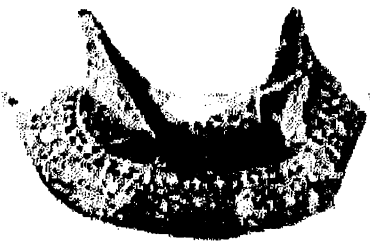
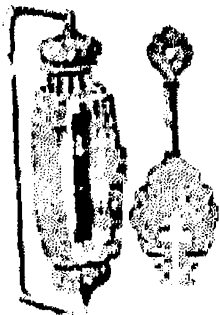
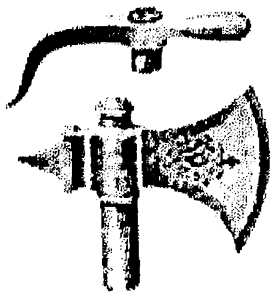

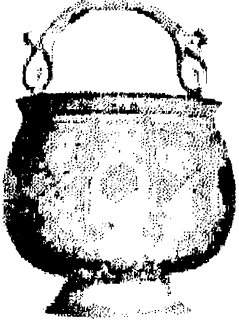
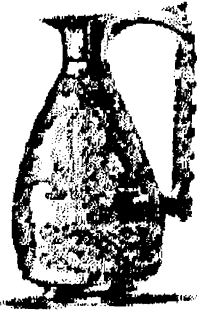
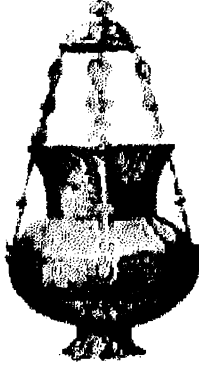

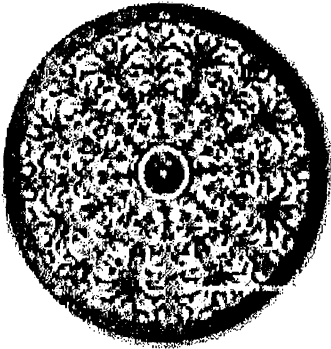
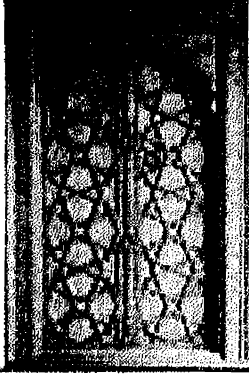
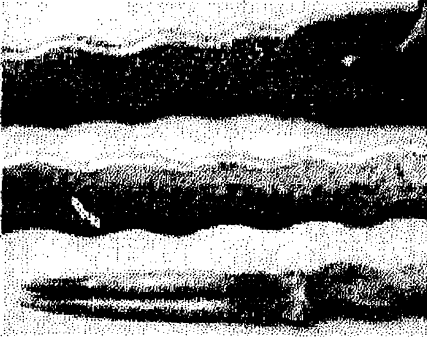

كالكلاب على هذا الصورة كما ترى لها أسنان كالأسنان

المشار تقطع فيها وتقران شاء الله تعالى



هنا صورة تدفع أيضا ه ه ه



		
<p>سرج</p>	<p>مفتاح وفنل</p>	<p>فتوس</p>
		
<p>حنى</p>	<p>إتاء</p>	<p>إبريق</p>
		
<p>فنديل</p>	<p>كوب</p>	<p>صحن</p>
		
<p>باب</p>	<p>أعمدة سيوف</p>	<p>أفواس</p>

أدوات تستخدم فى الحياة اليومية



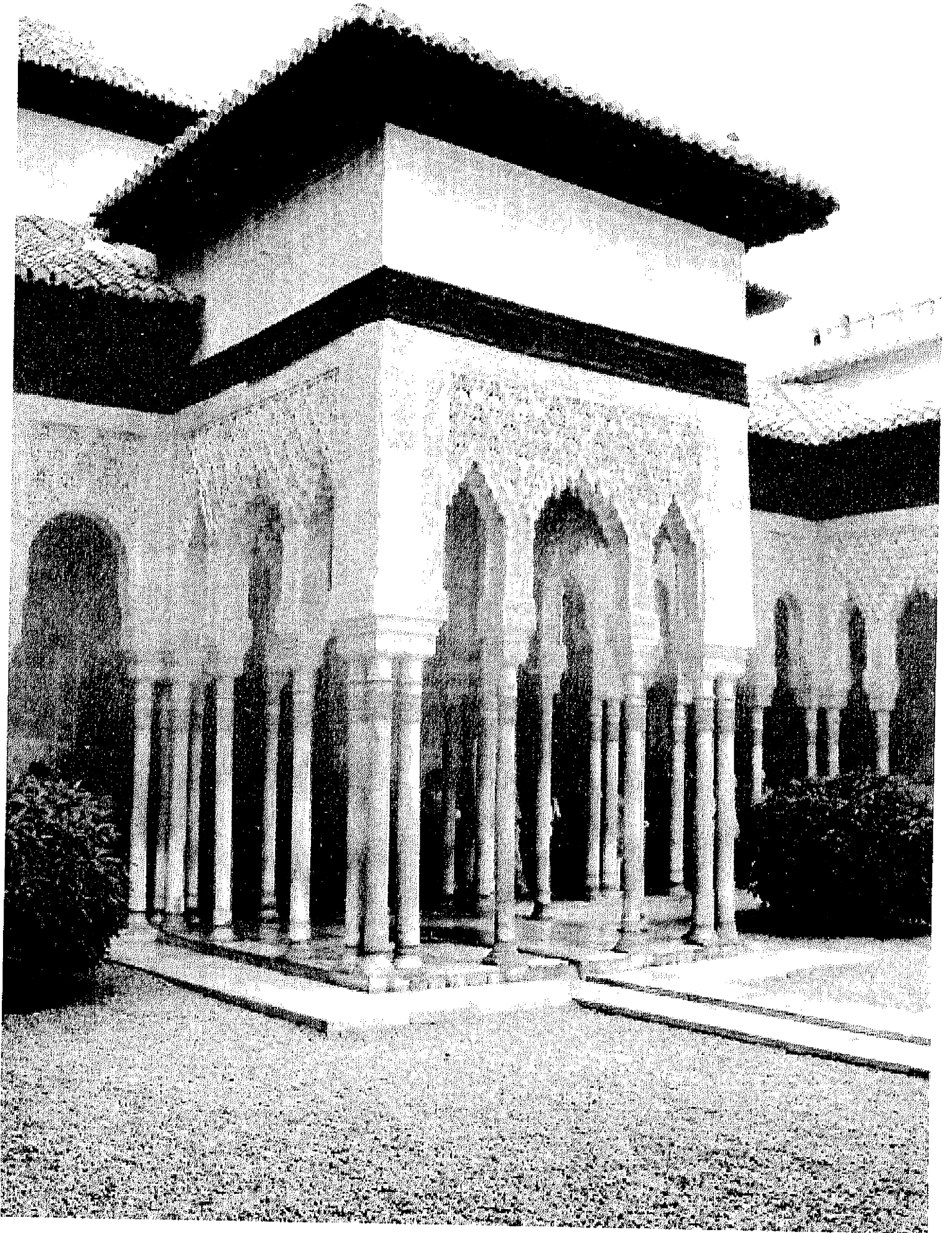
نقوش الأختام عند المسلمين



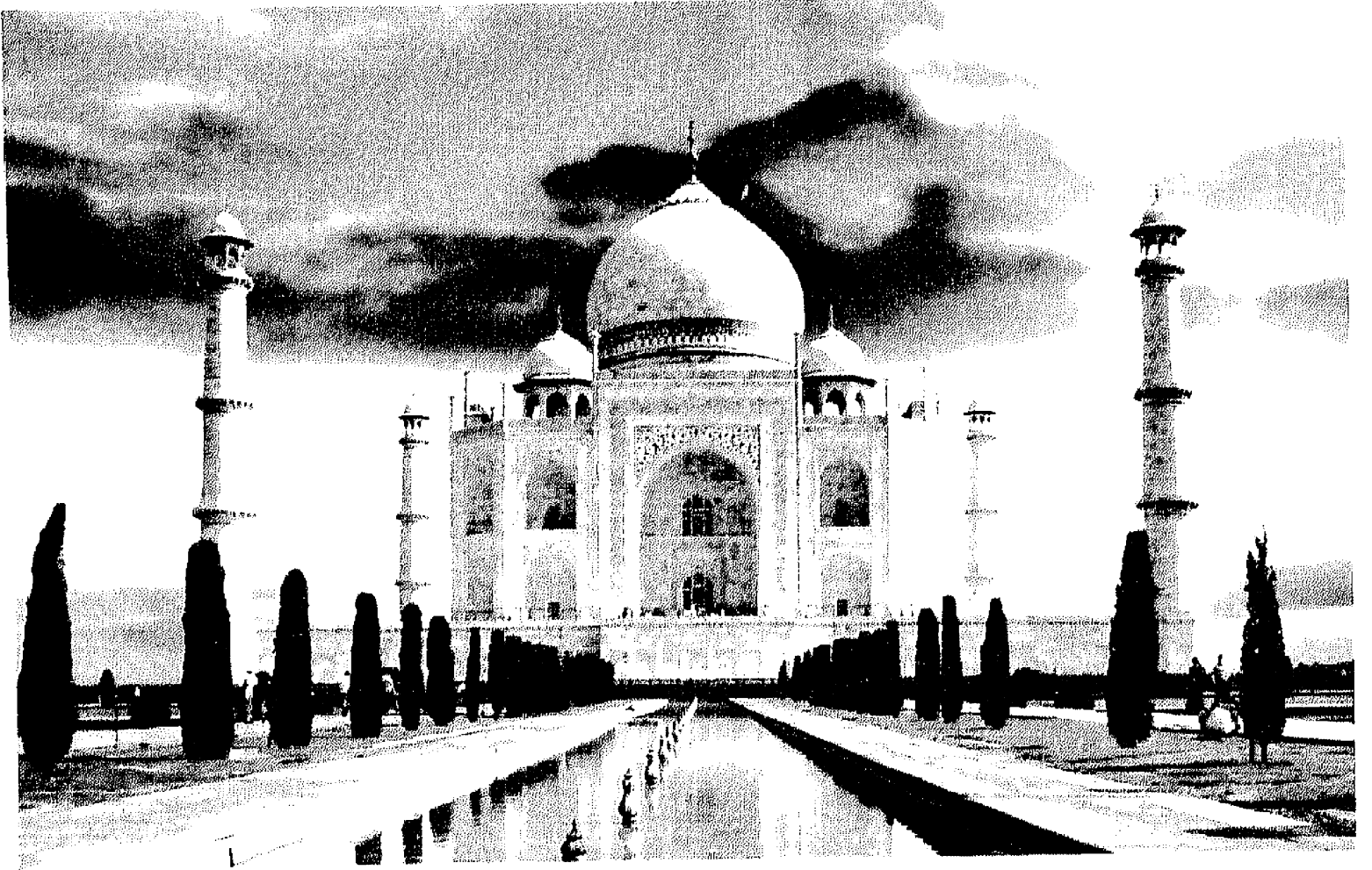
ورقة من مخطوط للطوسي



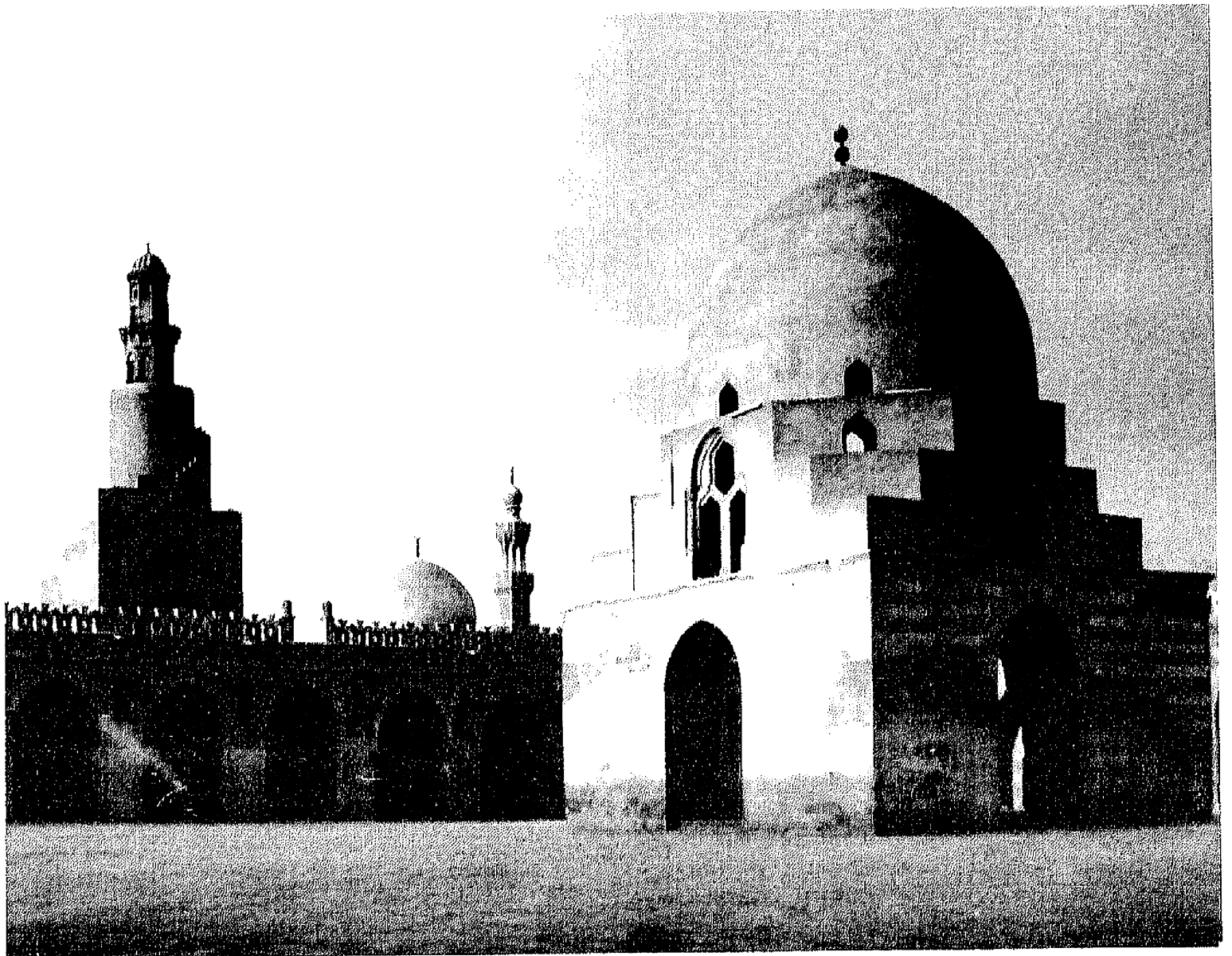
مئذنة جامع قرطبة



جزء من قصر الحمراء بغرناطة



تاج محل



جامع أحمد بن طولون



رقم الإيداع ١٦٤٦٢ / ٢٠١٢ م

الترقيم الدولي I.S.B.N. 978-977-322-304-7

مطبعة صحوة

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٩٦٧٨ ٠١٠١٠٠